الفصل الثالث

الفكر الاسلامى والطبيعة الانسانية

فى الفصلين السابقين تناولنا « التربية والطبيعة الانسانية » فى بعض الفلسفات الغربية وخصصنا من الفلسفات الغربية المثالية،والطبيعية،والوجودية والماركسية ، والبرجماتية • وذكرنا أن رؤية هذه الفلسفات للطبيعة الانسانية كانت متعددة • كما أن الفكر التربوى الناجم عنها كان أيضا متنوعا • وذكرنا أن هذه الفلسفات كانت اجتهادات فكرية دعت اليها تطورات الحياة وتغيرات الزمن • ومن ثم فان هذه الفلسفات كانت محدودة الأجل ، وكان بقاؤها مرتبطا بضرورة عصرها ، حتى اذا مازال الباعث عليها زالت معه • وهنا كان التعاقب بين الفلسفات ، والتناقض فيها • فما يصلح لليوم لايصلح للغد ، وماتستجيب له بيئة لاتستجيب له أخرى فالمثالية مثلا لم تكن لتصلح لمعالجة أحداث الحاضر وحاجاته • والماركسية مثلا لم يكن مقدرا لها أن تذيع وتستشرى فى أوربا أو امريكا مثلا •

كل هذا لان هذه الفلسفات كانت نتاج العقل الانسانى وحده ، وحتى التى اصطبغ منها بالصبغة الدينية كان متأثرا بظروف العصر وثقافته •

ونحن بحكم التخلف الثقافى الذى عشناه طويلا كنا نتوجه بفكرنا طورا الى هنا وطورا الى هناك ، مدفوعين بالرغبة الملحة فى اللحاق بالدول التى ظننا أنها قطعت شوطا غير قصير فى ركب الرقى والحضارة ، فاغفلنا تراثنا ، ولم نحاول أن نزيل عنه غبار الجمود والتخلف • وأن نعيد اليه نصاعته ووضاءته ، وأن نتخذ منه مصدرا لفكرنا التربوى يلائم خصائصنا الثقافية • وينسجم مع بيئتنا الاسلامية التى عشنا فيها •

ومن الواضح أن هذه الفلسفات على اختلاف اتجاهاتها ، وتباين مناشطها، قد اتسمت بالتطرف والمغالاة ، فالمثالية غالت فى الجانب الروحى وتطرفت فيه ، والطبيعية غالت فى الجانب الغرائزى وبالغت فيه ، والوجودية غالت وتطرفت

عندما اغفلت كل الجوانب الا جانب الذات ، والتاكيد على فردية الانسان • والماركسية امعنت فى الغلو عندما نظرت للانسان نظرة مادية بحتة ، وفسرت سلوكه بكل مظاهره تفسيرا ماديا • والبرجماتية بالغت عندما اهملت المستقبل وركزت على الحاضر ، ولم تعترف الا بالقيم النفعية التى يمكن ممارستها عمليا وبصورة واقعية •

من هنا تتضح الحاجة الى ضرورة العودة لديننا الاسلامى نستلهمه فكرنا التربوى حتى يكون فكرا رائدا بناءا مساهما فى احداث التغيير وتطور المجتمع، طالما أن التربية كانت دائما فى كل الفلسفات وعبر عصور التاريخ المختلفة أداة تغيير واصلاح وبناء وتقدم •

وسندرس فى هذا الفصل الفكر الاسلامى من حيث محتوياته ، وأساليبه ، وغاياته لينتقل بعد هذا الى الحديث عن الطبيعة الانسانية فى جوانبها المختلفة ، وذلك تمهيدا للحديث عن الفكر التربوى الناجم عن هذا ، والذى سيختص بـه الفصل التالى •

الدين ضـــرورة :

الدين ضرورة فردية واجتماعية ، ولايمكن أن يحيا الانسان بغير دين ، كما لايمكن أن يعيش المجتمع بغير عقيدة ، لأن الدين يعنى الخضوع والاذعـان لقوة أعظم وأعلى من قوة الانسان أو المجتمع ، حيث يجد فيها كل من الانسـان والمجتمع الأمن والراحة والاستقرار • قال تعالى « وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها » •• آل عمران : ٨٣ ، وقال تعالى « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » •• الاسراء : ٤٤ ، وقال تعالى « ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها » •• الرعد : ١٥ ، فهذه الآيات وغيرها تؤكد الخضوع والاذعان الخالق ، فالطبيعة تسير وفق القوانين التى قدرها الله تعالى ، ووفق الحتمية التى ارادها المولى عز وجل ، والانسان يسير وفق الامكانات العقلية والبدنية التى زوده الله بها ووفق تسخير المخلوقات الأخرى له ، فهو فى جانب منه يسلم أى يخضع كرها ، لأنه لايستطيع ان يجاوز هذه الامكانات ، وأن يتعدى هذه القدرات • وهو فى جانب منه يسـلم

طوعا عندما يؤمن بالله ، ويوقن أنه الخالق القادر • وذلك عن طريق النظر والتفكير والاستدلال أو عن طريق الوجدان والحدث والفطرة •

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » (١) • يقول ابن الأثير فى ذلك أن الفطر يعنى الابتداع والاختراع، ومعنى الحديث أنه يولد على نوع من الجهلة والطبع المتهيىء لقبول الدين ، فلو ترك لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها الى غيرها ، وانما يعدل عنه لآفة من آفات البشر والتقليد ، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى فى اتباعهم لآبائهم والميل الى أديانهم (٢) •

فالدين ضرورة وفق الفطرة التى فطر الله الناس عليها كما قال تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » • فالانسان بفطرته ، وبما أوضعه الله فيه من غرائز وحاجات عضوية بحاجة للبحث والتنقيب والتساؤل ، حتى يحصل على الوسائل التى تشبع حاجاته وغرائزه • فهو بحاجة الى اشباع حاجاته العضوية مثل الطعام والشراب ، وبحاجة الى اشباع غرائزه الثلاث المختلفة غريزة الدرج والتدين وغريزة حب البقاء • والمعروف فى علم النفس أن السلوك مبعثه الحاجة ، فالحاجة تعنى حدوث خلل فى التوازن والاستقرار داخل كيان الانسان ، مما يدفعه عن طريق السلوك الى محاولة اعادة التوازن والاستقرار ، فالجائع يظل قلقا نشطا حتى يشبع ، والمهدد بالخطر يظل قلقا باحثا عن الأمن حتى يضمن الحياة (٣) • يقول « وليم جيمس » : ان الدين هو الحقيقة الأولى ، التى يحس الفرد نفسه مدفوعا الى الاستجابة لها استجابة تتسم بالجدية والجد ، دون أن تذمر أو استهزاء (٤) •

---

(١) مسلم ، صحيح مسلم ، الجزء ٨ ، القاهرة ، محمد على صبيح ، ص ١٠ •

(٢) ابن الأثير ، النهاية فى غريب الحديث والأثر ، ط ١ جزء ٣ ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ، د• ت • ، ص ٢٢١ ، ٢٣٢ •

(٣) سميح عاطف الزين ، الاسلام وشخصية الانسان ، ط ٤ ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٧٣ م ، ص ٩ •

(٤) عبد العزيز المليجى ، تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق ، دار المعرف بمصر ، ١٩٥٥ م ، ص ١٧ •

فالانسان بفطرته يبحث ، وينشط ، ويعمل ، وهو فى بحثه وعمله يصطدم بقوى أعظم من قوته ، وتواجهه عوائق يعيا عن اجتيازها ، ولايقوى على الغلبة عليها • ومن ثم يأخذ فى التزلف اليها والتقرب لها • حدث هذا فى كل العقائد البدائية ، فمن الشعوب من عبدت النار كالمجوس ، ومنها من عبدت الشمس والكواكب ، ومنها من عبدت النيل والشجر كالفراعنة ، ومنها من أقر بالله ولكنها توسطت اليه بالاصنام كالجاهليين •

فهذا يؤكد أن الانسان دينى بالطبع ، وان الدين ليس صفة مكتسبة ، وانما هو خاصة فطرية من خصائص الانسان ، بل يمكن القول بأنها ابرز الخصائص الانسانية ، حتى ان البعض قد عرف الانسان بانه حيوان دينى •

وحقيقة فان الشرك بمظاهره المختلفة لايعد من الدين الحق فى شىء • ولكنه فى جوهره يعد دينا أو عقيدة انحرفت عن المسار السليم ، واتخذت سبلا أخرى بعيدة ، حتى من لادين له ، له عقيدة ، فالماركسية الملحدة وان كانت لاتقر الدين ، الا أنها تقر وتؤكد العقيدة الماركسية فهى لاتؤمن بالله ، ولكنها تؤمن بالمادة والعلم • فهى تستبدل الها بالله ، وعقيدة بعقيدة ، والانسان لايمكن أن يسير فى الحياة وهو جاهل بها ، الانسان بحاجة الى عقيدة تضىء له الطريق تجنبه الخوف من المجهول ، تروض له الحياة بتفسيرها له واستئناسها • حتى وان كانت هذه العقيدة خاطئة ، المهم أن يحيا بعقيدة تفسر له الوجود الذى يعيش فيه وتقف به على خالق هذا الوجود ، حتى يمكنه أن يتعامل مع الطبيعة ومع الانسان •

الانسان بحاجة الى عقيدة توجه خطاه ، وترشد سلوكه ، وتجنبه الهلاك والدمار ، وهو بحاجة الى عقيده لأنه يفكر ، ولا يخبط على غير هدى ، فهو يستغل كل طاقاته من أجل الامن والاستقرار ، ومن أجل اشباع حاجاته ورغباته • وفكره هذا هو الذى يكشف له عن ميادين مجهوله ، ويوضح له ان هناك قوى خفية غيبيه مجهولة ليستطيع محاربتها ، فيذعن لها أو يتوسل اليها بدافع حب البقاء ، وبمنطق التفكير •

وكما أن الدين ضرورة فردية فهو أيضا ضرورة اجتماعية ، فالدين نظام

اجتماعى • وجد منذ أن وجد المجتمع البشرى ، واذا كان الانسان الفرد دينيا بالطبع ، فلابد أن يكون المجتمع دينيا بالضرورة فالمجتمع هو الأفراد بأمالهم وأهدافهم ومصالحهم ، والانسان بحاجة الى الوحدة الدينية والتجانس الديني. فاذا ماتحققت الوحدة الدينية ، تحقق المجتمع ، وتحقق وجوده • والدين كنظام اجتماعى له فكره وقيمة ، وعاداته ، وشعائره ، ومنهجه التربوى ، وله اهدافه وهو كنظام اجتماعى موجود فى كل المجتمعات قديمها وحديثها ، وله دوره فى بناء المجتمع وحركته وتغيره وهو يتفاعل مع النظم الاجتماعية الأخرى ، بل ويهيمن عليها ، ويصبغها بصبغته ، فكثيرا مايجد فيه المجتمع تفسيرا لقضاياه السياسية والاقتصادية والأسرية والثقافية والحربية والدستورية ، فنظام الاسرة مثلا يخضع فى تقاليده وعاداته للدين ، والاقتصاد غالبا مايتأثر بالدين • ولقد وضح أثر الدين فى حياة المجتمع فى كثير من الازمنة ، ففى زمن الاقطاع مثلا، لعب الدين دوره فى حياة الناس الاقتصادية ، فاستأثرت فئة قليلة بالغنى ووجدت لها سندا من الدين ، وعانت الغالبية من الفقر والجوع آملة فى حياة سعيدة وراء الحياة الدنيا ، وخشى الملوك والاباطرة سلطان رجال الدين • بل أن الحروب الصليبية ماكانت الا بتأثير رجال الدين ، فقد حاول بعض قادة هذه الحروب ألهرب من نفوذ الكنيسة ، والبحث عن مناطق نفوذ فى الشرق •

فالدين يمثل أحد النظم الاجتماعية باعتباره يحمل نظرة للكون والوجود والانسان ، كما يمثل مجموعة من القيم الخلقية والاجتماعية والاقتصادية ولقوة تأثير الدين فى حياة المجتمع فان بعض القوى السياسية تحاول التمسك به كأداة من ادوات الحفاظ على الوضع القائم كما أن بعض هذه القوى تحاول الاخذ بـه كأسلوب ثوره على الوضع القائم ، وأداة تغيير اجتماعى شامل • وتاريخنا القومى خير شاهد على ذلك ، فقد عجز الاستعمار بكل جبروته وطغيانه أن يقهر الارادة الوطنية وأن يقتل روح الثورة فى الشعب • وما ذاك الا بفضل الروح الدينية القوية العاتية • وان سلطان الدين وسيطرته على حيوات شعبنا كشاهد آخـر على هذا فقيمنا الاجتماعية ، وسياستنا الاقتصادية ، وأخلاقنـا ومثلنا ، وعاداتنا وتقاليدنا لتعكس مدى قوة الروح الدينية ، ولتؤكد مدى أثر الدين فى حياة المجتمع • ولأهمية الدين فى حياة المجتمع فقد عكفت بعض الدراسات على دراسة أثر الدين كنظام اجتماعى ، وظهر مايسمى بعلم الاجتماع الدينى ،

ومن هذه الدراسات تلك الدراسة التى قام بها « روجيه باستيد » مبادىء علم الاجتماع الدينى (٥) ٠

فالعقيدة فى اللـه ليست خرافة ولا وهم ، وانما هى حقيقة من حقائق الكون ، وظاهرة بينه من ظواهر الوجود ، ومازال القرآن يؤكدها ، ويرسى قواعدها ، ويربى على أساسها ، حتى أصبحت فى حس المؤمنين واقعا محسوسا ، تكاد تلمسها الايدى ، وتراها العيون ٠ وهى الهدف الأول لكل رسالة والدعوة التى دعا اليها جميع الرسل والأنبياء « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنـا فاعبدون « الانبياء » ٢٥ (٦) ٠

الاسلام دين عام وشامل :

واذا كان الدين ضرورة فطرية ، فما دور الاسلام هنا فى تصحيح العقيدة ؟ وكيف وصل بها الى حد الكمال والشمول ؟

من رحمة اللـه بالانسان انه لم يكله لنفسه ولم يدعه لذاته ، فاللـه تعالى يعلم أن هذا الانسان مخلوق ضعيف ، وكائن متناقض ، وقد تدفعه نزواته الى المعصية ، وتنكبه جادة الهدى ، ولذا أرسل سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين ، يدعون للخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يدعون باللـه واحد منزه عن الشبه والنظير ٠ ولم يكن ليحاسب اللـه أمة قبل أن يرسل اليها رسولا قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » الاسراء : ١٥ ٠

والاديان السماوية كلها رغم تعددها تقوم على أركان ثلاثة جمعها قول اللـه تعالى « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن باللـه واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » البقرة : ٦٢ ٠ فالاركان الاساسية الثلاثة التى تقوم عليها أى عقيدة الهية هى الايمان باللـه والايمان بالجزاء ، والعمل الصالح (٧) ٠

---

(٥) أنظر : روجيه باستيد (ترجمة محمود قاسم) ، مبادىء علم الاجتماع الدينى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥١ م ٠

(٦) محمد شديد ، منهج القرآن فى التربية ، القاهرة ، مكتبة الاداب بالجماميز ، د ٠ ت ٠ ، ص ٨٦ ٠

(٧) محمد رشيد رضا ، الوحى المحمدى ، ط ٦ ، القاهرة ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٦ م ، ص ١٤٥ ٠

والاديان السماوية كلها ارتكزت على هذه الاسس ، فهى تدعو للـــه ، وتدفع للعمل ، وتحث عليه ، لأن الناس سوف يبعثون ، ويحاسبون عـلى ما قدموا من عمل ، ان خيرا فخير ، أو شرا فشر • وهنا يلوح تساؤل : لمـاذا فضل الاسلام كل الاديان السماوية السابقة عليه ؟ ولماذا نسخها ؟

يقول الله تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » المائدة : ٣ ، ويقول تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » آل عمران : ١٩ • ويقول المولى « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » آل عمران : ٨٥ • ويقول تعالى « ماكان محمدا أبـا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الاحزاب : ٤٠ •

فهذه الآيات تقرر أن الاسلام هو الدين الكامل الشامل ، وأن الرسول هو خاتم الانبياء • والقرآن حين يقرر هذا فهو لايعنى رفضه للاديان السابقة ، أو انكاره لها ، فمن عناصر الايمان ، الايمان بكتبه ورسله • الاسلام يؤمن بالاديان السابقة ، يؤمن بها لأنها عالجت فترات معينة ، ودعت الناس الى عبادة الله فى مراحل زمنية خاصة • والمعروف ان كل نبى كان يرسل الى قومه خاصة ، أما الرسول عليه السلام فقد أرسل الى الناس كافة ، قال تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » : سبأ ٢٨ ومنهج الله عز وجل فى هداية البشرية بهذا الشكل المتدرج الذى يبدأ من الجزء لينتهى الى الكل • أو من الخاص ليصل الى العام هو منهج طبيعى يلائم تطور الحياة وسنة الترقى ، ذلك أن البشرية تبدو كالكائن الحى يبدأ بمرحلة الطفولة ، ويصل الى مرحلة النضج والاكتمال • والبشرية قد قطعت شوطا طويلا فى الجهل والبدائية ، وكان طبيعيا تماما أن تعامل كالطفل فيراعى فى التعامل معها البساطة فى العقيدة ، والوضوح فى الدعوة ، والقلة فى التكاليف والميل للحس (٨) • ولذا كانت معجزات الأنبياء قبل الرسول معجزات حسية تخاطب الحواس وتثير الدهشة • ولكنها لاتكفل الاقتناع أو الايمان كان طبيعيا أن تعامل البشرية هكذا قبل ان ترقى سلم النضج والكمال ، وقبل أن تصل الى درجة من التعقد والتشابك كما نلاحظ

---

(٨) تشارلس آدم (ترجمة عباس محمود) ، الاسلام والتجديد فى مصر ، القاهرة . لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، ١٩٣٥ م ، ص ١٤٨ •

اليوم • ولعل هذا تعززه الدراسات الأنثرولوجية التى تتجه لدراسة الحياة البدائية كما تعيشها بعض القبائل ، وحتى يمكنها أن تفسر حركة التطور ، وترصد مساراته •

من هنا فان دور الأديان السابقة على الاسلام كان دورا مرحليا ، وليس دورا مستمرا خالدا • وكما أن الطفل لايمكن أن يظل طفلا ، فكذا البشرية لايمكن لها أن تبقى فى حالة البدائية ، وكان لابد لها أن تتجاوزها الى مرحلة النضج والرشد ومن ثم لم يكن بمقدور الأديان السماوية السابقة أن تستوعب هذه المرحلة • وأن تتلاءم معها ببساطة دعوتها ، وأسلوبها الحسى ، وضآلة تكاليفها • وكان لابد من دين مرن شامل يستوعب التطور ويساير التقدم ، بهدف تأصيله وترشيده • وكان هذا الدين هو الاسلام « ذلك الدين القيم » (٩) •

لقد استوعب الاسلام كل مافى الأديان السابقة من مبادىء وزاد عليها ، فعندما ينسخ الاسلام هذه الأديان فانما ينسخها لانها لم تعد صالحة للتطور ، ولم تعد قادرة على التوجيه والارشاد • انه يقربها فى حدود دورها المحدد • ولكنه لايؤمن بها كأديان مطلقة خالدة ومن العبث أن تستمر الأديان السابقة وتبقى بجانب الاسلام ، وقد حواها جميعا • كما أنه من العبث أن نقوم بتعليم طالب القراءة والكتابة وهو مثلا فى المرحلة الجامعية •

الاسلام هو دين الشمول والاحاطة ، دين الفكر والتعقل ، لقد أيد الله رسوله بمعجزة القرآن وجعلها الدليل الواضح على رسالته ، ولم يكن القرآن الكريم معجزة حسية تثير الحواس وتبعث الدهشة لفترات محدودة • ولكنه كان معجزة فكرية أدبية غيبية ، معجزة تخاطب العقل لا الحاسة تدعو للتفكير وتنفر من الجمود والتقليد الأعمى والتوارث الضال • ولقد حاولت قريش أن تعود لأسلوب الحواس فطالبت الرسول بمعجزات حسية ، قال تعالى « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله

---

(٩) الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ط ١٥ ، القاهرة ، دار المنار ، ١٣٧٢ هـ ، ص ١٦٦ - ١٦٩ •

والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » • الاسراء : ٩٠ - ٩٣ •

الاسلام دين يسر وسماحة :

وقد حارب القرآن الجمود والتقليد ، ونعى على الكفار تقليدهم فقال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ماانزل الله ، قالوا بل نتبع ماالفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون » فالتقليد آفة الجهل والضلالة • والفكر سبيل الايمان واليقين • لقد تصور المشركون أن يكون الرسول ملكا ، لا أن يكون بشرا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق « وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » •

الاسلام كان يعنى العودة الى منطق الفطرة السليم ، منطق الايمان والخشوع لله • « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » • البقرة : ١٣٨ وكان يعنى تصحيح العقيدة ، والثورة على جهالات الوثنية والشرك التى انحرفت عن جوهر الدين وحقيقة العقيدة • كان يعنى الشمول لأنه قدر الفطرة ، ووضع فى الاعتبارات امكانات الانسان وقدراته ، ومايمكن أن تنجزه هذه الامكانات ، « لايكلف الله نفسا الا وسعها » وقال الرسول عليه السلام « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبة » (١٠) الاسلام يقدر امكانات الانسان ويعلم أنها تستطيع أن تفعل الكثير ، ولكنه فى نفس الوقت قدر حدود هذه الامكانات التى لايمكن أن تجتازها ، ولعل هذا يتضح من قوله تعالى « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون • الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين • وان يكن منكم ألف يغلبوا الفين باذن الله ، والله مع الصابرين » • الأنفال : ٦٥ ، ٦٦ • فالقوة البشرية المؤمنة قادرة على مواجهة الكثرة المشركة ، الواحد المؤمن يستطيع أن يواجه عشرة من المشركين ولكن هذه القوة قد يعتريها الضعف حينئذ يكون التخفيف فالواحد يواجه اثنين •

---

(١٠) البخارى ، صحيح البخارى ، جـ ١ ، القاهرة ، دار الشعب ، ص ١٦ •

ويتضح يسر الاسلام وتقديره للطاقة البشرية من خلال ممارسة أركان الدين نفسها • ففى الصلاة أجاز التيمم عند الضرورة ، وفى الصوم أباح الافطار مع العذر ، وفى الزكاة أسقطها عن غير القادر ، وكذا فى الحج ، فجعله وكلف به من يستطيع • فعدم المغالاة والتطرف واتخاذ الموقف الوسط هو سبب من أسباب شمول الاسلام وعموميته قال تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » • البقرة : ١٤٣ • والوسط هنا لايعنى التوسط بين رذيلتين ، كما عرف أرسطو الفضيلة عندما قال أنها وسط بين رذيلتين • وانما الوسط يعنى الرؤية المتكاملة المتوازنة للانسان •

والاسلام شامل وعام لأنه لايقر التفاوت بين الناس على أساس من اللون أو الجنس ، وانما يؤكد التآخى والمساواة قال تعالى « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم » • الحجرات : ١٣ • وقد قال الرسول الكريم « الناس سواسية كأسنان المشط » • ويروى أن ابا ذر الغفارى رضى الله عنه عير غلامه بأمه فقال له الرسول عليه السلام « يأأبا ذر أعيرته بأمه ، أنك امرؤ فيك جاهلية . اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولاتكلفوهم مايغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » (١١) • ويعرف الاسلام صحابيين أفذاذ مثل : بلال ، وصهيب ، وسلمان الفارسى وغيرهم • مما يؤكد المساواة والتآخى فى الدين •

والاسلام دين عام وشامل وخالد لأنه لم يعزل الارض عن السماء ، ولم يقل مالله لله ومالقيصر لقيصر ، الاسلام دين ودنيا تشريع من السماء موجه لعمل الأرض ، التحام وتزواج بين الايمان والعمل • نظام اجتماعى متكامل الجوانب متوازن الأبعاد • ولو أنه كان مجرد طقوس تؤدى وشعائر تزاول لاندثر مثلما اندثر غيره ، فالطقوس متغيره . والشعائر متبدلة خاصه اذا افتقدت الاقناع واليقين ، واصطدمت بأحداث العصر ومنطقه • الاسلام ليس غيبيات مبهمة ، ولكنه مبادىء واضحة ، ويقين مطلق يتجسد عملا وسلوكا •

ولأنه عام وشامل فهو لايستند فى عموميته الى القهر والقمع كما يدعى

---

(١١) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

البعض من أن الاسلام انتشر بحد السيف ، قال تعالى « لااكراه فى الدين ٠٠ » البقرة : ٢٥٦ ٠ وقال تعالى « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران : ٦٤ ، هو لايقاتل الا الشرك فقط ، ولكنه لايقاتل الأديان السماوية لانها تدعو للتوحيد ٠

فعمومية الاسلام وشموليته تستمد من حرية الانسان نفسه ومن تفكيره ، لا من قمعه وقهره ٠ واذا كان يحارب المرتد فذلك ليمنع الفوضى فى العقيدة ، واذا كان يحارب المشرك فذلك لأنه يهدف الى تصحيح العقيدة ٠ فالعقيدة جوهرة ووجوده : فنساد العقيدة يعنى فساد المجتمع ، وفساد الوجود ، وعدم تحقيق الخلافة فى الأرض ٠

ومن هذا يتضح أن الاسلام دين عام وشامل يخاطب البشرية جمعاء ، وهو يرتكز فى شموله على مخاطبة الفكر الانسانى ، وتقديره للطاقة الانسانية فى قوتها وضعفها ، ويسره وسماحته وتأكيد المساواة بين الناس ، وصلاحيته لأن يكون تشريعا أى عقيدة وعملا ، ونظاما اجتماعيا متكاملا يحتوى كل تطورات الحياة ومفاهيم العصر ٠ وعدم قيامه على القهر والارهاب ٠

وبهذه الأسس يمثل الاسلام ذروة النضج الدينى للأديان السماوية السابقة كلهـا ٠

محتـوى الاســـلام :

تجسدت عمومية الاسلام وشموليته فى مبادئه ونظمه التى احتوى عليها ، وكما سبق القول فان الاسلام لم يكن ليبقى أبدا مجرد طقوس أو شعائر تنزوى بعيدا عن معترك الحياة ، يقول الله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليو الآخـر والملائكة والكتـــاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هـم المتقون » البقرة : ١٧٧ ٠

الاسلام يعنى جانبين الايمان والعمل ، وقد يطلق الاسلام أحيانا ويراد به العمل فقط فى مقابل الايمان ، قال تعالى « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ٠ ٠ » ؟

والاسلام لايعزل الايمان عن العمل ، بل الايمان أحيانا هو العمل يقول الرسول حين سئل : اى العمل أفضل ؟ فقال : ايمان بالله ورسوله (١٢) ٠

وفى القرآن الكريم يأتى الايمان كثيرا مقترنا بالعمل قال تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » الكهف : ١٠٧ ، وقال تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم » يونس : ٩ ٠ فهما صنوان متلازمان ٠

فالايمان مالم يدعمه العمل ، والارادة والنية مالم يؤكدها السلوك ٠ تكون عبثا ، وعندما يقال انما الأعمال بالنيات فذلك لتأكيد العلاقة بين الايمان والعمل قال تعالى « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ٠ وقال الرسول الكريم « من رأى منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » فالعمل دليل الايمان ٠ وكما سبق القول فان الفطرة البشرية تدفع للبحث والسلوك ٠ والكائن الحى عموما لايقدر له البقاء بدون السعى والبحث والعمل ٠ يقول الرسول عليه السلام فى حديث معناه ليس الاسلام بالتمنى ولكن الاسلام ماوقر فى القلب ، وصدقه العمل ٠

وكما أراد الاسلام تصحيح العقيدة ، أراد أيضا تصحيح السلوك ، وتوجيه العمل ، ففساد العقيدة يعنى فساد السلوك ، وتغير النفس تستتبع حتما تغير السلوك « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » الرعد : ١١ ٠

والمقصود بالعمل فى الاسلام كل المظاهر السلوكية للانسان أى الجانب التشريعى فى الاسلام ويمكن تناول هذين الجانبين بشىء من التوضيح فيما يلى :

اولا : الايمان وهو يعنى التصديق القلبى ويشمل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ٠ والايمان بالله يعنى تنزيهه عن النظير « قل هو

---

(١٢) صحيح البخارى ، الجزء الاول ، القاهرة ، كتاب الشعب ، ص ١٣ ٠

الله أحد » وتوحيده والايمان بالله يستتبع عدم العبودية لغير الله • وفى هذا تجسيد لحرية الانسان وتحرير له من كل عوامل القلق والخوف والتوتر ، فعبادة غير الله ذلة ومهانة للانسان ، والخضوع لله وحده عزة وكرامة وشجاعة ، الايمان بالله يعنى اتباع أوامره واجتناب نواهيه •

والايمان بالملائكة لانهم رسل الله ووسائل تنفيذه ، فهم وسائط الوحى « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » الشورى : ٥١ • وقال تعالى « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الانفال : ١٢ •

ولقد جادل المشركون كثيرا فى أمر الملائكة وجعلوهم اناث الرحمن « ويجعلون لله البنات سبحانه •• » النحل : ٥٧ فالايمان بالملائكة يقتضيه الايمان بالله • ثم الايمان بالكتب السماوية السابقة كالتوراة والانجيل والزبور قبل التحريف، والايمان بالرسل السابقين •وكما سبق القول فان الاسلام يقر بالأديان السابقة ويؤمن بها لأن مصدرها واحد وهو الله تعالى ، ذلك أنها أدت رسالتها بالصورة التى تتلاءم مع طبيعة عصر ماقبل الاسلام •

والايمان باليوم الآخر يمثل الوازع الداخلى الضابط لسلوك الانسان ، ويمكن القول بأنه الضمير الداخلى الذى يحكم سلوك الانسان ، وهو أحد الضابطين الاجتماعيين فالمعروف فى علم الاجتماع أن ضابطى النظام الاجتماعى اثنان احدهما داخلى يتمثل فى سلطة الضمير ، والآخر خارجى يتمثل فى الردع والعقاب • فايمان الانسان باليوم الآخر يعنى محاسبته لنفسه ، ومراقبته لكل أمور حياته قال تعالى فى مدح المؤمنين « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب » الرعد : ٢١ فالايمان باليوم الآخر هو مصدر الالتزام الخلقى • ولقد حاول بعض الفلاسفة أن يرجع الالزام الخلقى الى المجتمع . والالهام الذى يدفع بعض النفوس الى اعلاء القيم الانسانية ، وهذا ماذهب اليه « برجسون » (١٣)•

---

(١٣) محمد السيد بدوى ، الاخلاق بين الفلسفة والاجتماع ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ م ، ص ص ٦٦ - ٧١ •

ولقد كثرت الآيات القرآنية التى تعمل على ترسيخ الخوف من الله والخوف من اليوم الآخر فى القلوب قال تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم » ٠ الحج : ١ ٠ وقال تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ان وعد الله حق ٠٠ » لقمان : ٣٣ ٠

والقرآن الكريم حينما رسم المشاهد المروعة للقيامة مثل « اذا زلزلت الأرض زلزلها ٠٠٠ » ومثل « ٠٠ وما أدراك ماسقر لاتبقى ولا تذر ، لواحة للبشر » ومثل « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ » ق : ٣٠ ٠ ومثل : وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، انها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة » الهمزة : ٤ ـ ٩ ٠ حين يرسم القرآن هذه المشاهد فيدا ليهز النفس الانسانية ، وليسيدها الى منطق الفطرة والتدبر ، فالعقل الانسانى يسلم منطقيا باليوم الآخر ، اذ لايعقل أن يتساوى المطيع مع المخطىء والظالم مع المظلوم فى النهاية ، وأن ينتهى الانسان بالموت فقط دون حساب ٠

ولأن الايمان هو مصدر السلوك ، ومبعث العمل ، وشرط التوفيق والنجاح فى أداء الرسالة فقد حرص القرآن الكريم على أن يستخدم شتى الطرق والأساليب من أجل أن يعود بالفطرة الى جوهرها الحقيقى ، وهو الايمان الضرورى ، فالفطرة توجب الايمان ، والعقيدة ضرورة لها كما سبق القول ٠ وهذا مأكدته الدراسات الانثروبولوجية ، وما أكده التحليل النفسى فذكر « كارل يونج » ان النفس تتكون من الوعى واللاوعى ، والأخير يتضح فى الامراض العقلية والأحلام ٠ ولا يخضع لسلطان النظام الاجتماعى ٠ أما الدين فهو عبارة عن شعور الحب والاحترام والخشوع وهو القوة التى تسيطر على عناصر اللاوعى وتنظم سلوك الانسان (١٤)

فالانسان دينى بالفطرة ٠ وهو بحاجة الى مايغتى له العقيدة ، لذا سلك القرآن سبيل التهديد مرة والترغيب فى النعيم مرة أخرى ٠ ودعا لاستخدام العقل مرة ، والاعتبار بحال الأمم أخرى ، واستخدام أسلوب التمثيل والقصة مرة أخرى ٠

---

(١٤) محمد فاضل الجمالى ، تربية الانسان الجديد (مرجع سابق) ص ٣٩ ، ٤٠ ٠

وشغلت قضية الايمان السور المكية كلها ، واتسمت هذه السور بالقصر ، وعنف الجرس الصوتى ، والتهديد والوعيد مثل : والعصر ان الانسان لفى خسر .. ، انا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر » . ومثل يايها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر .. » .

فالاسلام عنى أولا بيقين العقيدة ، وترسيخ الايمان ، حتى اذا فرغ من ذلك جاء بجانب العمل .

ثانيا : العمل : وهو التجسيد الحى للايمان ، فلو أن الحياة وقفت عند حدود الدوافع ، والتصديق القلبى ، لما قام لها أمر ، ولاصلح لها حال . يقول تعالى «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» آل عمران: ٣١ ويقول تعالى « أيحسب الانسان أن يترك سدى » القيامة : ٣٦ . فالحياة صراع وكفاح وعمل ، يقول تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

وعناية الاسلام بالجانب العملى منه أو التشريعى يؤكده موقفه من المنافقين فلم يكن المنافقون مؤمنين حقيقة ، ولم يكن الايمان قد رسخ فى نفوسهم . ومع هذا فلم يعاتبهم الاسلام ولم يهدر دماءهم ويستبيح أموالهم ، فهم يصلون ، ويصومون ، ويزكون ، ويحجون ، أى يزاولون الجانب العملى من الدين . وعناية الاسلام بالعمل لايعنى اهماله للايمان فالاسلام الحقيقى الكامل والمسلم الحق هو من جمع بين الايمان والعمل .

والعمل يعنى السلوك بكل صورة وضروبة ، ويمكن تحديد مجالات السلوك فى الاتى : سلوك الانسان مع الله ، وسلوكه مع الآخرين . والمجال الأول يقصد به العبادات والمجال الثانى يقصد به المعاملات .

العبادات وهى تشمل الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وسلوك الانسان هنا هو سلوك مع الله أى تعامل مع الله . والتعامل مع الله يهدف الى تكوين الشخصية المؤمنة القوية الحرة ذات الضمير الحى والقلب اليقظ . فالصلاة هى الحبل الوثيق الذى يربط الانسان بربه . وهى قمة الخشوع والخنوع لله ولذا كانت قرة عين الرسول . كما يقول الرسول الكريم « وجعلت قرة عينى فى

الصلاة » . الصلاة رحلات الهية ولقاء روحي متجدد كل يوم يخلص فيها المؤمن من دنياه ، ويتجه بكل كيانه الى الخالق طالبا منه العون والهداية ، متمثلا فيها عظمة الخالق وقدرته . يقول الرسول عليه السلام : « أرايتم لو أن نهرا بدار أحدكم فاغتسل فيه خمس مرات في اليوم والليلة ، هل يبقى من دونه شيء فقال الحاضرون : لا ، فقال الرسول هكذا الصلاة » . الصلاة رياضة بدنية وروحيه واسلوب نظافة دقيق وهي صحة ووقاية وعلاج (١٥) . ولأهميتها جاءت تالية دائما للايمان « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » . البقرة : ٣ . وهي تاتي في القرآن مقرونة بالاقامة ، فلم يقل تعالى « يصلون » أو « صلوا » وانما يسبق لفظ الصلاة لفظ الاقامة ، فالمطلوب فيها أن تؤدى كاملة مستوفية لشروطها واركانها . وهي ليست مجرد حركات وسكنات ، ولكنها نبض حي ، ويقظة كاملة ، ووعي بهيبة الخالق واقرار بوجوده ، واقترابا منه ، واستغراقا فيه ، ولقد بين الله تعالى الهدف منها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » العنكبوت : ٤٥ .

وترك الصلاة يعني الاستسلام لتيار الرغبة والشهوات يقول تعالى « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » مريم : ٥٩ .

ومع أنها صلة شخصية بين الانسان والخالق فهي أيضا لها مدلولها الاجتماعي ، فقد حبذ الاسلام صلاة الجماعة ، وأوجبها في صلاة الجمعة ، فصلاة الجماعة تمثل تكاتف الأمة وتعاونها وتساويها وتحابيها في الله ، أي هي صورة للأخوة الاسلامية ، وتجسيد لروح الألفة والمحبة بين أبناء المسلمين .

ومن العبادات الزكاة ، والزكاة حق لله تعالى قال تعالى « وفي اموالهم حق للسائل والمحروم » الذاريات : ١٩ . وحين يجعلها الله تعالى ركنا من أركان الدين فذلك لأنها تجهز الخلل ، وتحدث التوازن الذي قد يفتقد مع سوء توزيع الثروة ، ومع التفاوت في المال . والمال كما هو معروف يمثل الدورة الدموية في شرايين المجتمع ، واذا لم يؤد دورة كاملا فسد المجتمع وتعرضت بعض شرايينه

---

(١٥) محمد زكي سويدان ، الصلاة صحة ، ووقاية ، وعلاج ، القاهرة ، كتاب الهلال ، عدد ٢٨٥٥ ، ١٩٧٤ م ، ص ١٩ وما بعدها .

للضمور والشلل ، وما كان الله تعالى ليرضى أن يكون المجتمع الاسلامى مجتمعا ضعيفا متعطلا ، أنه يريد له القوة والغلبة • وقد هدد الله تعالى وتوعد الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله • وحث على الصدقة ورغب فيها ، « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ •

فالزكاة رأب للصدع الاجتماعى ، ومعالجة ذكية حكيمة لما يحدث فيه من خلل ، وترشيد سليم لسياسة المال الذى جعل الله الانسان فيه خليفة ، يقول تعالى « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » • ومع أن الزكاة ذات طابع اجتماعى الا أنها أيضا ذات طابع تعبدى ، وعندما يدرجها الله تعالى ضمن العبادات فذلك تأكيدا لدورها الاجتماعى ، وتعزيزا لأهميتها فى صيانة المجتمع والحفاظ عليه •

ومن العبادات الصوم وهو الذى يقول فيه الحديث القدسى كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا اجزى به «ويقول فيه أيضا » لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك « والصوم كما يقول الرسول » « جنـة » أى درع ووقاية ، يعلم النفس الصبر والصمود ازاء قوة الرغبة ونشوة اللذة • وحين يضعه الله تعالى بين أركان الاسلام فذلك لأنه يمثل الخضوع التام لارادة الخالق ، والامتثال لأمره ، يمثل قوة المؤمن وقهره لهوى الشيطان ، يمثل ذروة التحرر من عبودية الجسد ، وهى أخس أنواع العبودية • يمثل التعاطف مـع الفقير ، يمثل الشعور الانسانى النبيل ، ولذا لم يكن الصوم مجرد امتناع عـن الأكل والشراب وانما هو امتناع عن كل الآثام والخطايا • يقول الرسول الكريم « من لم يدع قـول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعـامه وشرابه » (١٦) •

فالصوم عبادة روحية ، ورياضة نفسية ، تعمل على خلاص المؤمن من أغلال الجسد وسلطان الرغبة • وتوفر للانسان المؤمن عناصر القوة والحرية والغلبة

ومن العبادات الحج • يقول تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرض والتعاطف مع اخوانه من المسلمين •

---

(١٦) صحيح البخارى ، ج ٣ ، ص ٣٣ •

ومن العبادات الحج . يقول تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » البقرة : ١٩٧ . ويقول تعالى « وللـه على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » . واذا كان المؤمن بانتهاء رمضان يعود من رحلته الروحية الى الدنيا فانه بدخول شوال يمتلىء قلبه بالشعور باستئناف رحلة أخرى يشارك الروح فيها البدن ويهرع اليها القادر عليها متحملا عناء السفر ، وعناء الطريق ، ملتمسا العون والرضوان (١٧) . وعبادة الحج متعددة الاهداف والغايات فهى فرديا تعمل على صفاء القلب ونقاء النفس عندما نذكر الانسان بالحشر ويوم الحساب فالحاج أشعث أغبر لا يلبس الا المحيط أو ما يشبه أكفان الموتى ، الحج هجرة روحية الى اللـه تؤكد الخضوع للـه والخوف منه ، وهو أيضا يحقق للفرد المنافع المادية وغير المادية . واجتماعيا لان الحج مؤتمر اسلامى عالمى يلتقى فيه المسلمون من كل حدب وصوب على الحب والتعاون والتآزر وتجديد العزم على اعلاء شأن الاسلام ورفعة كلمتـه .

والملاحظ ان هذه العبادات كلها مع أنها سلوك خاص مع اللـه ، ومع أنها علاقة فردية بالله ، الا أنها تعود الى المجتمع بناءة موجهة ، فالجانب الاجتماعى لا يغفل أبدا فى العبادات . فاعداد المؤمن وتربيته من خلال العبادات، ذلك ليعود الى ساحة العمل الاجتماعية الاخرى . وهنا نلحظ الدينامية السريعة بين العبادات وبين المعاملات ونلحظ التفاعل بين بناء الفرد وبناء المجتمع ، ليصقل المؤمن أولا بصورة علمية من خلال العبادات ليكون أهلا للمساهمة والمشاركة فى نشاط المجتمع .

كذلك نلحظ أيضا التدرج فى منهج العبادة ، فهناك العبادة اليومية المتجددة التى لا يمكن الاستغناء عنها لأنها أم العبادات ، وهى الصلاة . وهناك العبادة الشهرية التى يمثلها صوم رمضان ، وهناك العبادة العمرية التى على مستوى عمر الانسان وهى الحج .

---

(١٧) محمود شلتوت ، الاسلام عقيدة وشريعة ، ط ٦ ، بيروت ، دار الشروق ١٩٧٢ م ، ص١٣٥ ، ١٣٦ .

وقد تلتقى هذه العبادات فى وقت ما فتكون وسائل متعددة للتهذيب ، وصقل النفس من أجل الاعداد للحياة وللمجتمع ٠

هذا هو مجال السلوك الفردى أو مجال التعامل مع الخالق ٠

أما مجال السلوك الثانى فهو مجال المعاملات ، وهو مجال متعدد الجوانب واسع الابعاد ، اذ هو يشمل حياة الانسان كلها ، يشمل نظام الاسرة والمواريث، ويشمل أمور البيع والشراء والمعاملات المالية ، ويشمل الحدود والعقوبات ويشمل بناء الدولة وأخيرا يشمل العلاقات الدولية ٠

واذا كان الاسلام قد عنى بالفرد ، وعمل على اعداده بالعبادات ، فذلك لأنه يكون مع الاخرين نسيجا اجتماعيا متشابكا قويا ٠ وحتى يتحقق هذا كان لابد من ضبط السلوك ، ورصد النشاط وتوجيهه بما يتفق مع صالح المجتمع وتقدمه ٠ وكان أن اهتم الاسلام بالخلية الأولى فى بناء المجتمع وهى الأسرة ، وقد حرص الاسلام على أن يوفر كل الضمانات الكفيلة بتأسيس أسرة مسلمة قوية ٠ وتبدأ هذه الضمانات منذ الخطوات الأولى فى تكوين الأسرة ٠ وهو الزواج ، لقد حرم الاسلام الزنا ونفر منه لأنه سبيل التدهور والضياع ، وشرع الزواج وجعله ضابطا لغريزة الجنس ومهذبا لها ٠ وحتى يحقق الزواج الهدف منه ، وهو تأسيس الأسرة ، أباح التعرف بين الزوج والزوجة قبل الزواج ، ولكن فى الحدود المشروعة ، ويؤيد هذا قول الرسول الكريم للمغيرة بن شعبة « أنظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » ٠ كما دعا الاسلام الى التحرى والتروى فى اختيار الزوجة يقول الرسول « تنكح المرأة لأربع لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» ويقول فى حديث آخر « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ٠ وشرع الاسلام الكفاءة فى الزواج ضمانا لحسن العشرة والألفة فينبغى ان يكون هناك تناسب بين الزوجين فى الوضع الاجتماعى والاقتصادى ٠ وفرض الاسلام المهر ولم يحدد مقداره ، يقول تعالى « وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » النساء : ٢٠ ٠ وذلك تكريما للمرأة واحتراما لها ٠

والاسلام يتوقع أن يحدث خلاف فى محيط الأسرة فأشار الى أساليب العلاج ، يقول تعالى « واللائى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن » • أما اذا ما اشتد الخلاف فان الاسلام يشير بالتوسط بين الطرفين يقول تعالى « فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها » النساء: ٣٥ • حتى اذا ما تعذر ت الحياة بين الزوجين هنا أباح الاسلام الطلاق ، وجعله أبغض الحلال الى الله • يقول تعالى « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته » النســـاء : ١٣٠ •

ولأن الانسان لايستطيع أن يعيش بمفرده ، ولابـد أن يتعـامل مـع الآخرين ، حتى يضمن البقاء • من هنا عرض الاسلام لوسائل الكسب المشروعة فأباح البيـع والشراء ، وحرم الربا والغش والجشع والاحتكار • ووضـع الضمانات الكفيلة بحماية المال ، ودعـا الى الاخذ بالاسلوب المعتدل فى الانفاق « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » • ودعـا الى التسامح فى المعاملة ، يقول الرسول الكريم « رحم اللـه رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى » ودعـا الى تحرى الامانة فى المعاملة ، وتوثيق العقود • يقـول تعالى « يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل » البقرة : ٢٨٢ ووضع الاسلام نظاما للمواريث ثابتا ، وحدد لكل وارث نصيبه خشية الفرقة والاختلاف • ولأن الناس يختلفون فى السلوك ، فقد كان لابد من سن العقوبات والحدود التى تكفل الحفاظ على حياة المجتمع ، وتوفر لـه استقراره وثباته • والحدود هى احد الضوابط الاجتماعيين المشـار اليهما فيما سبق فمـع أن الاسلام يقـر الحرية فى السلوك الا انه لا يسمح بالفوضى • فشرع عقوبة السرقة ، ووضع حـد الزنا والقذف ، والشرب • كما حدد عقوبة المرتد ، وقاطع الطريق • وفرض القصاص فمن قتل يقتل ، العين بالعين ، والسن بالسن •

واذا كانت هناك بعض التصيحات تعارض فى اقامة الحدود فذاك مبعثـه الجهل بحكمة الخـالق من اقامة هـذه الحـدود ، أو التجاهـل باسـم المدنيـة والعصريـة •

واذا كان الاسلام قد عالج هذه المعاملات الداخلية بين أفراد المجتمع ، فانه أيضا قد عالج ما يجب ان يتبع فى تأسيس الدولة . فأكد الاسلام على المساواة بين الناس ، وعدم المفاضلة أمام القانون ، يقول الرسول « انما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفسى بيده لو فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدهـــا » (١٨) .

وأكد الاسلام على مبدأ الشورى قال تعالى « وشاورهم فى الأمر » وقال أيضا « وأمرهم شورى بينهم » . ودعـا الى اختيار الحاكم وأوجب عليـــه الالتزام بكتاب اللـــه وسنة رسوله . وجعل الالتزام بتعاليم اللـــه عقـــدا سياسيا يلتزم بـــه الحاكم والمحكوم . يقول تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللـــه وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .. » النساء : ٥٩ . يقول أبو بكر رضى اللـــه عنه فى خطبته « أطيعونى ما أطعت اللـــه فيكم فان عصيته فـلا طاعة لى عليـــكم » .

الاسلام يحارب الديكتاتورية والاستبداد ويؤكد الديمقراطية والمشاركة. وقـد كانت حياة الرسول تطبيقا عمليا لمبدأ التساوى والديمقراطية والمشاركة. وكذا حياة الخلفاء من بعده ، لقد قال رجل لعمر بن الخطاب « لو رأينا فيـك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » . والديمقراطية فى الاسلام تعنى الوعى بمعنى المشاركة والفهم لمعنى التشاور ، ولا تعنى مجرد الفوضى والارتجال . ثم ان الاسلام عالج موضوع التعامل مع الأمم الاخرى ، متخذا من مفهوم الانسانية هدفا وغاية ، فالناس أخوة « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فلا تفاضل بين الناس على أساس من اللون أو الجنس أو الدم وانما الناس كلهم سواء . لذا حارب الاسلام الظلم والاستعمار. وما شرع الهجاد الا من أجل درء الظلم ورد الاستعمار . وما كان الجهاد فى الاسلام من أجل غزو أو استعباد وانما كان من أجل تحرير وايمان .

---

(١٨) صحيح البخـــارى ، ج ٨ ص ١٩٩ .

وهكذا فالاسلام يعطى بتعاليمه مجالات السلوك الانسانى ابتداء من الفرد الى الجماعة الى الانسانية • وهو فى كل هذا يؤكد على الفرد أو الطبيعة الانسانية ويتخذ منها منطلقا لكل تشريعاته ونظمه •

هذه عجالة تناولت محتوى الفكر الاسلامى تناولا سريعا مكتفية بالمعالم العامة مغفلة التفاصيل والجزئيات فليس هذا مما يتسع لـه البحث •

الاســـــلام والتغيـــر :

الحديث عن التغير يقتضى الالمـام - بشكل مختصر - بمصادر الفـكر الاسلامى وهل تسمح هذه المصادر باحتواء التغ يرأو تعجز عنـــه •

التغير ضرورة طبيعية فى الحياة ، وبدونه لا يمكن للحياة أن تسير أو تتحرك ، لأن التحرك نفسه يعنى التغير ، ففى الجمود فنـــاء وموت ، وفى الحركة تجدد وتقدم الطبيعة تتغير فالشمس تشرق وتغرب ، والمياه تتبخر وتتجمد ، والنبات ينمو ويذبل ، والانسان يولد ويكبر ويموت • والحياة بكل مظاهرها حركة وتغير ، ولكنه تغير محكوم بقوانين ونواميس لا يمكن أن يحيد عنها ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار » يس : ٤٠ •

والتغير حقيقة جوهرية فى الانسان ، وبالتغير صنع الانسان الحضـــارة وحقق التقدم والاسلام فى جوهره تغير ، اذ هو ثورة على التقيد والجمود ، ودعوة للحركة والعمل ، والعمل سبيل التغير • وقـــد اتضح اثر الاسلام كعامل تغير فى حياة العرب • فقضى على عبادة الأوثان ، وبدلهم من الذلة عزة ، ومن الفقر غنى ، ومن الضعف قـــوة ، وبدون التغير لا يمكن أن نفسر ايمان الناس وتحولهم عن عقيدة الشرك الى عقيدة التوحيد والتغير حقيقة أعرب عنهـــا القرآن فى قولـــه تعـــالى « ان اللـــه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعـــد : ١١ •

والتغير فى مدلوله العام يشمل كل جوانب الحياة المادى منها وغ يرالمادى• وعندما يربط القرآن الكريم تغير الحياة بتغير النفس ، فذلك لأن التغير النفسى

هو مصدر التغير السلوكى ، تغير المفاهيم يستتبعه حتما تغير الاساليب والسلوك .

والاسلام - كما سبق القول - دين شامل خالد ، يلائم الفطرة ، ويوافق الطبيعة الانسانية بما فيها من طاقات وامكانات ، ولأنه دين صالح لكل زمان ومكان فلابد أن يتسع ليشمل كل صور التغير ومظاهره ، ولابد أن يواكب الحياة بكل تطوراتها وانجازاتها .

والتغير - كحقيقة اجتماعية - لايعنى عدم توفر قدر من الثبات والاستقرار أى أن هناك عناصر ثبات يجب توفرها فى بناء المجتمع ، كما أن هناك عناصر تطور تعمل على رقى المجتمع وتقدمه . وتقسيم « رالف لنتون » للثقافة الى عموميات وخصوصيات وبديلات يؤكد وجود هذين الجانبين معا الثبات والتطور ، فالعموميات هى مكونات الثبات والرسوخ ، والبديلات هى عناصر الدينامية والتغير (١٩) . والثبات ضرورى لأن المجتمع لو استمر فى تغير مكوناته كلها لجاءت فترة يجد نفسه فيها قد أمحت شخصيته وذابت معالمه. والمجتمع كالكائن الحى يتغير ولكنه لا يفقد مقوماته الاساسية ، وعناصره وعدم الاعتراف بجانب الثبات فى حياة المجتمع معناه اهمال التراث الثقافى ، وعدم الاعتراف بأثر الماضى .

وفى ضوء هذا فان الاسلام كتشريع خالد ، وكنظام اجتماعى للحياة ، يضع فى الاعتبار هذين الجانبين : جانب الثبات ، وجانب التغير .

وجانب الثبات فى الاسلام يشمل الايمان بالله ، فهو عماد المجتمع وسر بقائه ، والمجتمع بدون ايمان يضطرب ويهلك . يقول تعالى « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » الحج : ٣١ . ولأن الايمان هو محور الثبات فى كيان المجتمع ، فقد كان جوهر

---

(١٩) حسن الفقى ، الثقافة والتربية ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٨ م ، ص ١٤ ، ١٥ .

الديانات السماوية كلها ، يقول تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله » النساء : ١٣١ ٠

ويشمل أيضا العبادات ، الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج ٠ فلا مجال فى العبادات للتغير والتبديل فلا يمكن مثلا أن يكون العصر ثلاث ركعات ، أو أن تكون الصلاة بدون ركوع ٠ وانما العبادات أمور تعبدية لا مجال فيها للتغيير والمناقشة ٠

ويشمل جانب الثبات أيضا نظام الأسرة والمواريث ، فشروط الزواج ، وأحكام الطلاق وغيره مما يتصل ببناء الاسرة كلها أمور ثابته ٠ وكذا نظام المواريث ، فلا يمكن التعديل فى الأنصبة أو التغيير فيها ٠

ويشمل جانب الثبات الحدود والعقوبات فهناك حدود صريحة وقاطعة كحد السارق والزانى ، وهذه لا مجال معها للتغيير والتبديل ٠

ويشمل جانب الثبات المحظورات كشرب الخمر ولعب الميسر ، وأكل الميتة ولحم الخنزير ٠

هذا عن التغير ، أما عن مصادر الفكر الاسلامى فهى تتمثل فى : الكتاب قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » النحل : ٨٩ والسنة وهى موضحة ومفصلة لما اجمل فى القرآن الكريم ٠ والسنة تعنى كل ما ورد عن الرسول الكريم قولا وعملا واقتداء ٠ ويقول الرسول فى القرآن والسنة « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ٠ كتاب الله وسنة رسوله »٠

أما المصدر الثالث فهو الاجماع : وهو يعنى اجماع الأمة ، وقد اتفق اهل السنة على الاحتجاج باجماع الصحابة فى الدينيات ، والشيعة على اجماع اهل البيت فى عرفهم ، وفى اجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل (٢٠) ٠

والمصدر الاخير هو الاجتهاد ، وقد أقره الرسول الكريم ، فقد روى عن

---

(٢٠) محمد رشيد رضا ، الوحى المحمدى (مرجع سابق) ص ٢٤١ ٠

عمرو بن العاص - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (٢١) ٠

فالاجتهاد ليس مصدرا مستقلا عن القرآن والسنة ، وانما هو محاولة للتفسير ، ولتوضيح المبادىء العامة ، والقياس عليها ، وللاجتهاد أسس وقواعد ينبغى الالتزام بها فهو ليس مجرد تفسيرات ذاتية أو انطباعات خاصة محكومة بالهوى والرغبة ، وانما هو مصدر موضوعى علمى لا مجال فيه لمثل ذلك ٠

فالاجتهاد مصدر تشريعى يهدف الى احتواء الجديد ، واجازته ، ومنحه صفة الشرعية وقوة القانون ٠ والمذاهب الفقهية الكبرى تؤكد دور الاجتهاد فى معالجة الجديد من الوقائع والاحداث معالجة اسلامية ، وفى قدرته على ابراز جانب المرونة والحيوية فى الاسلام ٠ ويوم ان توقف العمل بهذا المصدر، يوم أن جمد المجتمع الاسلامى ورمى أهله بالتخلف والجمود ٠ وعناصر التطور التى يمكن أن يعالجها الاجتهاد تشمل الامور الدنيوية من حلال وحرام ، وسياسة واقتصاد ، وآداب ٠ فاذا لم يرد فيها نص قاطع كان الاجتهاد ٠ كذا ما ورد فيها نص غير تكليفى كالاحاديث المتعلقة بالعادات والطعام والشراب٠ وكذا ما سكت عنه الشارع ولم يرد فيه فعل أو ترك (٢٢) ٠

الاسلام والتفكير :

واذا كان الاسلام هو دين الفطرة والشمول واليسر واذا كان هو تشريعا للحياة ، وتنظيما لها ، واذا كان هو سبيل التطور ٠ فذاك لأنه دين الفكر والتعقل والمعرفة ، فمن مقتضيات الفطرة التفكير ، وطابع الشمول لا يتحقق

---

(٢١) عبد الله الشرقاوى ، فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ، (جزء ٣) ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م ، ص ٣٨٤ ٠

(٢٢) عبد العزيز كامل ، الاسلام والعصر ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ م ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ٠

الا بالفكر فهو وحده القادر على الاحاطة والمام بجزئيات الحياة ، والتشريع لا يمكن أن يكون مثمرا الا اذا قام على أساس عقلانى ، والتطور لا يحـــدث الا بالتفـــكير ٠

وهكذا فان أسلوب الاسلام فى التعامل هو أسلوب التفكير سواء فى مجال العبادات او مجال المعاملات حتى العقيدة نفسها أو الايمان نفسه فيقوم على التفـــكير ٠

والمتصفح لكتاب اللـــه يجده يحث على التفكير ويرغب فيه ٠ وللمعرفة فى القرآن الكريم طرق متعددة منها طرق النظر والملاحظة لملكوت السموات والأرض، وطريق ربط الأسباب بالمسببات ، قال تعالى « ونزلنا من السماء ماء بقدر ، فأنبتنا بـــه جنات وحب الحصيد » ٠ ومنها طريق الشعور الباطنى ، وقـــال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ٠ ومنها طريق المعقولات المحضة أى ما يصل فيه الانسان عن طريق الفكر البحت ، وقال تعالى « لو كان فيهما آلهة الا اللـــه لفسدتا » ٠

ومنها طريق البديهيات العقلية ، وهذه الطريق تعرف بالطريق الديكارنى، فالمخلوق مثلا يدل على وجود خالق (٢٣) ٠

والتفكير كما يقول العقاد فريضة اسلامية ، اذ لا يذكر القرآن العقل الا فى مقام التعظم والتنبيه الى وجوب العمل بـــه ، ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ، بل هى تأتى فى كل موضع مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة (٢٤) ٠

والآيات القرآنية التى تحث على التفكير والتدبر كثيرة منها قوله تعالى « أفـــلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال

---

(٢٣) محمد غلاب ، المعرفة عند مفكرى المسلمين ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م ، (طرق المعرفة كما عرضها القرآن الكريم)٠

(٢٤) عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة اسلامية ، ط ١ ، القـــاهرة ، دار القـــلم ، ص ٥ ٠

كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » الغاشية : ١٧ ــ ٢٠ • وقوله تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألبـاب» آل عمران : ١٩٠ ، قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، والقينا فيها رواسى » ق : ٦ ــ ٧ •

والآيات متعددة وكثيرة تستحث العقل ، وتدفعه الى البحث والتأمـل والاستنتاج • فالتفكير اذا ــ أسلوب القرآن ومنهجه فى التشريع والعقيدة • والتفكير الاسلامى ليس تفكيرا تجريديا ، أو تأمليا فقط ، وانمـــا هو تفكير ذكى ، تفكير تجريبى أيضا ، يخطط للعمل ويوجه للسلوك مسترشدا بتعاليم اللـه وسنة رســـوله •

هـــدف الفـــكر الاســـلامى :

وعن هدف الفكر الاسلامى فانه يهدف الى تحقيق السعادة والأمن للبشرية والحياة فى سلام ومؤاخاة • وهذا لا يتحقق الا بعبادة اللـه عندما تحرر النفس من كل قيود الجسد ، ومن كل عوامل العبودية ، عندئذ تكون حـرة قويـــة لا تخضع الا للـه ولا تعبد الا اللـه فتمتثل لأمره ، وتتجنب مانهى عنه • بقول تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الذاريات : ٥٦ • ويقـول تعالى « يأيها النآس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » البقـرة : ٢١ •

فالعبادة هى مصدر السعادة ، وهى الضمان الوحيد لتحقيق خلافة اللـه فى الأرض • هذا عن الفكر الاسلامى من حيث خصائصه ، ومحتواه ، وأساليبه وغايته يبقى بعد هذا أن نلم بأبعاد الطبيعة الانسانية فى ضؤ هذا الفكر والى أى مدى كان هذا الفكر منسجما تماما مع هذه الابعاد ، بل وقائما عليها • فالانسان هو الذى يؤمن وهو يعمل ، والايمان والعمل يكونان الاسلام فالوقوف على تصور الاسلام للطبيعة الانسانية يعنى الالمام بباعث الفكر الاسلامى وداعيـــــه •

الطبيعة الانسانية مناط الخلافة :

فيما سبق تناولنا الفكر الاسلامى ، ولعله قد اتضح أن هذا الفكر كان يستهدف تصحيح العقيدة كما كان يستهدف ضبط السلوك الانسانى وتوجيهه ٠

وهنا نعرض للطبيعة الانسانية من حيث كونها مناطا لاستخلاف الله لها فى الأرض ، من أجل تنفيذ احكامه ، وامتثال اوامره ٠

يقول الله تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون ٠ وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ٠ قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ٠ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » البقرة : ٣٠ ـ ٣٣ ٠ ويقول تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » ٠ النور : ٥٥ ٠

وفى ضوء هذه الآيات يمكن القول بان الله تعالى قد شاء أن يكون آدم الانسان خليفة الله فى أرضه ٠ ولم يكن آدم أو الانسان أول ما خلق الله تعالى من عباده ٠ فقد خلق من قبله الملائكة والجن ٠ ويتضح ذلك من سياق الآيات ، اذ تدهش الملائكة لخلق كائن جديد يسعى فى الأرض فسادا يقتل ويرق الدماء كما فعل الجن من قبل (٢٥) ٠ معنى هذا أنه كان يوجد الملائكة من قبل الملائكة ، وخشية الملائكة ان يكون هذا الكائن الجديد مثل الجن فى الافساد اذ هم السائلون ، كما أنه كان يوجد الجن من قبل اذ هم محط اعتراض

---

(٢٥) تفسير الجلالين ، ص ٦ ٠

واراقة الدماء . وخلق آدم كان ايذانا بتحول جديد فى حياة الوجود « ظهرت بادرته الأولى حين تلقت الملائكة النبأ الالهى المؤذن بخلق آدم خليفة فى الأرض، فبدأت تفكر فى العلل والاسباب على غير المعهود فيطبيعتها من الاذعان والتسليم، وقيامها بأمر الله دون تفكير أو مراجعة » (٢٦) . ولعل مايدعم هذا ان الملائكة لم تقف موقف السائل الا فى هذا الموقف ، وما عداه فان الملائكة هم رسل الله المسخرون لعبادته وطاعته « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » وليس من طبيعة الملائكة الجدل أو المناقشة ، ولا من صفاتهم التفكير والسؤال ، ولذا كان اعتراض ابليس على خلق آدم تمردا خطيرا على هذه الطبيعة ، وما عرفت به من الطاعة والخضوع ، كما كان ايذانا ببداية مرحلة جديدة يحتدم فيها الصراع بين الخير والشر . والخضوع والاختيار ، فآدمية الانسان ليست ملائكية الخضوع والتسليم ، ولا ابليسية التمرد والعصيان ، وليست جبرية التسليم ، ولا حرية العصيان والتمرد . وانما آدمية الانسان هى تحقيق للذات عن وعى وحرية وارادة . ومن هنا يكون الابتلاء لآدم ، ومن هنا يكون التحول فى الوجود ، لقد شاء الله أن يخلق هذا الانسان ، وأن يجعله فى الأرض ، وشاء أن يفضله على الملائكة فأمرهم بالسجود له « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس » ، وعندما رفض ابليس السجود لآدم طرده الله من رحمته ، وأنزل به لعنته . فكرم الله تعالى الانسان ومجده فى شكل سجود الملائكة له .

ويقال ان الله تعالى عندما خلق آدم خلقه من أديم الأرض بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة وسواه ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا » (٢٧) . يقول تعالى « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » الحجر : ٢٦ . ويقول أيضا « خلق

---

(٢٦) عائشة عبد الرحمن ، مقال فى الانسان ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٧ .

(٢٧) تفسير الجلالين ، ص ٧ .

الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار » الرحمن : ١٤ - ١٥ • فهذا الانسان الآدمى قد شاء الله له ان يكون خليفته فى الأرض ، ومع انه خلق من صلصال الا أنه كرمه ، وزاد فى تكريمه عندما خلقه على صورته ، كما قال الرسول الكريم خلق الله تعالى آدم على صورته • وزاد فى تكريمه أيضا عندما جعل تعالى من اسمائه الحسنى مثلا للانسان وقيما له يستهدى بها فى سلوكه ، ويسترشد بها فى سعيه • فجعل الرحمة والحكمة والعلم والقدرة والخبرة والعزة وغيرها من الصفات ، حتى عندما أراد الله ان يقترب من وجدان الانسان وخياله تشبه له بصفاته فهو ذو الوجه واليد « ويبقى وجه ربك » « يد الله فوق ايديهم » •

فالانسان جمع من الطاعة المطلقة والاختيار ، ومن الجبرية والحرية ، من الخير والشر ، وحين يميز الله تعالى الانسان بالعقل ، فذلك ليساعده على أداء رسالته وتحقيق الخلافة فى الأرض •

ومن هنا فان ابتلاء الانسان انما يكون فى تركيبه الغريب « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه » • الانسان : ٢ • وفى جوهره المتناقض • ولم يكن غير هذا الكائن الانسانى بقادر على أن يحقق الخلافة فى الأرض » « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا »• الأحزاب : ٧٢ • واذا كان الانسان قادرا على أن يصعد الى عالم السمو والنقاء بحيث يضاهى الملائكة ، فانه أيضا قد يتردى فى مهاوى الرذيلة والرغبة بحيث يتساوى مع الحيوان وينزل لمرتبته • وهو وحده القادر على ان يدرك ذلك أو يصل لهذا ، فهو ليس الملاك المطيع الذى لا يقوى على الخروج عن الطاعة ، وليس الحيوان الجسمى الذى يعجز عن التسامى والارتقاء • وانما هو بما أوتى من قوة فى الروح وقدرة فى البدن ، ووعى فى التفكير قادر على ان يكون الانسان الخليفة ، وان يعمر هذه الأرض •

والطبيعة الانسانية حين تحقق هذه الخلافة فانما ترتكز على أسس

ثلاثة :العلم والايمان والعمل • وهذا ما تؤكده الآيات السابقة فاختيار الله تعالى لآدم وتفضيله اياه على الملائكة كان بفضل العلم « وعلم آدم الاسماء كلها » • كما أن وعد الله بالاستخلاف فى الأرض كان مشروطا بالايمان والعمل « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات •• » وهذه الركائز الثلاث تكون جوهر الاسلام وحقيقته ، فالايمان طريقة العلم ، والعمل ليكون عملا طيبا ومثمرا سبيله العلم أيضا • كما ان هذه الركائز الثلاث تكون خواص ذاتية فى الطبيعة الانسانية ، فالطبيعة الانسانية بفطرتها نزاعة للمعرفة محبة للاستطلاع ، بحاجة الى البحث والعلم حتى تبقى على كيانها وتحفظ وجودها، وتحقق ذاتها بين الكائنات الاخرى • وهى فى بحثها ومحاولتها التعرف تكون افكارا تتخذها عقيدة لهـا تؤمن بها وتعتنقها وهى تتخذ من العقيدة مرشدا لها فى ممارسة نشاطها وسعيها فى الحياة •

فالطبيعة الانسانية حين تحقق الخلافة فانما تحقق ذاتها ، وهى فى تحقيقها لذاتها تحقيقا سويا انما تحقق الاسلام وتجسد مبادئه • فتحقيق الخلافة أمر فطرى فى الطبيعة الانسانية وتحقيق الخلافة يعنى الدين ، فالدين فطرى فى الطبيعة الانسانية •

وتحقيق الخلافة مسئولية ، على الطبيعة الانسانية أن تقوم بها ، وتكليف يجب ان تنهض له وبقدر ماتحقق هذه الخلافة ، وبقدر ماتنهض به من تبعات المسئولية وضرورات التكليف بقدر ماتحقق ذاتها ، وتؤكد وجودها • فالخلافة سعى وعمل وجهاد ومكابدة « لقد خلقنا الانسان فى كبد » • البلد : ٤ •

فالطبيعة الانسانية ليست مفهوما غيبيا ، ولا ماهية مجردة ، وانما هى وجود حى واقعى يتحدد من خلال سلوكه ، ونشاطه ، ومن خلال اختياره وارادته وقدرته على التنفيذ ، متخذا من العلم سبيلا له ومنهجا يلتزم به ، ومن الايمان مصدر انطلاق وثبات ، ومن العمل أداة بناء واعلاء لكلمة الله ، وتحقيق لخلافته فى الأرض •

فمسئولية الطبيعة الانسانية هى مسئولية جد جسيمة ، ولا يصلح لهـا من الكائنات الا الانسان « فهو مخلوق على لصورة الخالق ، مخلوق تربط به أمانة التكليف الى أسفل سافلين ، وترتفع به الى أعلى عليين »(٢٨)٠

مفهوم الطبيعة الانسانية فى التعبير القرآنى :

عبر القرآن الكريم عن الطبيعة الانسانية بألفاظ عديدة ومختلفة الدلالة، ولكنها فى مجموعها ترسم صورة متكاملة وواضحة لها ٠ والألفاظ التى استخدمها القرآن فى تعبيره البلاغى المعجز هى : الانسان ، النفس ، الروح، البشر ، الانس ٠

ولقد ورد لفظ الانسان فى المواطن الاتية : فى سورة الاسراء : ١٣ « وكـل انسان ألزمناه طائره فى عنقه » ٠ وسورة النساء : ٢٨ « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » ٠ وفى سورة يونس : ١٢ « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه » ٠ وسورة هود : ٩ « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثـــم نزعناها منه أنه ليئوس كفور » ٠ وسورة ابراهيم : ٣٤ « وآتاكم من كل ماسألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها أن الانسان لظلوم كفار» ٠ وسورة النحل : ٤ « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » ٠ وسورة الاسراء : ١١ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٠٠ « ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الانسان عجولا » ، « وكان الانسان كفورا » ، « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر كان يئوسا » ، « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا » ٠ وسورة الكهف : ٥٤ « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الانسان أكثر شىء جدلا » ٠ وسورة مريم : ٦٦ ــ ٦٧ « ويقول الانسان اذا مامت لسوف اخرج حيا ، أو لايذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » ٠ والانبياء : ٣٧

---

(٢٨) عباس محمود العقاد : **حقائق الاسلام وأباطيل خصومه** ، ط ٢ ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٢ م ، ص ٩٢ ٠

« خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون » ٠ والحج : ٦٦ « وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور » ٠ والعنكبوت: ٨ « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » ٠ والمؤمنون : ١٢ « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » ٠ ولقمان : ١٤ « ووصينا الانسان بوالديه ٠٠ » والاحزاب : ٧٢ « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » ٠ ويس :٧٧ « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين » والزمر : ٨،٤٩ « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم اذا خوله نعمة منه نسى « قال أنما أوتيته على علم » ٠ وفصلت : ٤٩ ، ٥١ « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط » ، « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه » والزخرف : ١٥ « وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين » ٠ والأحقاف : ١٥ « ووصينا الانسان بوالديه احسانا » ٠٠ والرحمن : ٣ « خلق الانسان علمه البيان » والمعارج : ١٩ « ان الانسان خلق هلوعا » والقيامة : ٣ ، ٥ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٣٦ « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ٠٠ بل يريد الانسان ليفجر أمامه ٠٠ يقول الانسان يومئذ أين المفر ٠٠ ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ٠٠ أيحسب الانسان أن يترك سدى » ٠ وسورة الانسان : ١ ، ٢ « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ٠ انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه » ٠ وسورة النازعات : ٣٥ ٠ « يوم يتذكر الانسان ماسعى »٠ وسورة عبس : ١٧ ، ٢٤ « قتل الانسان ماأكفره » « فلينظر الانسان الى طعامه » ٠ وسورة الانفطار : ٦ « يأيها الانسان ماغرك بربك الكريم » ٠ وسورة الطارق : ٥ « فلينظر الانسان مم خلق » وسورة الانشقاق : ٦ « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » ٠ وسورة الفجر : ١٥،٢٣ « فأما الانسان اذا مابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن » « يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى » ٠ وسورة البلد : ٤ « لقد خلقنا الانسان فى كبد » ٠ وسورة التين : ٤ « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ٠ وسورة العلق ٢ ، ٥ ، ٦ ٠ « خلق الانسان من علق » ، « علم الانسان مالم يعالم »-

« كلا ان الانسان ليطغى » • وسورة الزلزلة : ٣ « وقال الانسان مالها » • وسورة العاديات : ٦ « ان الانسان لربه لكنود » • وسورة العصر : ٢ « ان الانسان لفى خسر » •

ولفظ « بشر » ورد فى المواطن الاتية ، فى سورة آل عمران : ٤٧ ، ٧٩ « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » ، « ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله »• وسورة المائدة : ١٨ « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق » • وسورة الأنعام : ٩١ « وماقدروا الله حق قدره اذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء » • وسورة ابراهيم : ١٠ ، ١١ « قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا » ، « قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم » • والحجرات : ٢٦ « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون » وسورة النحل : ١٠٣ « ولقد نعلم أنهم يقولون أنما يعلمه بشر » • وسورة الكهف : ١١٠ « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد » • وسورة مريم : ٢٠ « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر »• وسورة الأنبياء : ٣٤ « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » • وسورة المؤمنون : ٢٤ ، ٣٣ « فقال الملأ من قومه ماهذا الا بشر مثلكم » • « •• ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » • وسورة الشعراء : ١٥٤ ، ١٨٦ « ماأنت الا بشر مثلنا » « وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين » • وسورة الروم : ٢٠ « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون » • وسورة يس : ١٥ « قالوا ماأنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء » • وسورة فصلت : ٦ « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد » • وسورة الشورى : ٥١ « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » • وسورة التغابن : ٦ « وذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا » ••

ولفظ « روح » ورد فى المواطن الاتية : فى سورة البقرة : ٨٧ ، ٢٥٣ « وأتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس » • وسورة النساء: ١٧١ « •• انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم ، وروح منه » والمائدة : ١١٠ « اذا قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك

وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس » ٠ وسورة النحل : ٢ « ينزل الملائكة بالروح من أمره ٠٠ » وسورة الاسراء : ٨٥ « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » ٠ وسورة الشعراء : ١٩٣ « نزل به الروح الأمين » ٠ وسورة غافر : ١٥ « رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من امره » ٠ وسورة المجادلة: ٢٢ « أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » ٠ وسورة المعارج: ٤ « تعرج الملائكة والروح اليه ٠٠ » ٠

ولفظ « نفس » ورد فى المواطن الاتية : فى سورة آل عمان : ١٤٥ « وماكان لنفس ان تموت الا باذن الله ٠٠ » وسورة النساء : ١ « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ٠ وسورة المائدة : ٣٢ « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس » والانعام : ٧٠ «٠٠ وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » ٠ والاعراف : ١٨٩ « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ٠٠ » ويونس : ٣٠ « هنالك تبلو كل نفس ماأسلفت ٠٠ » وسورة هود : ١٠٥ يوم يأت لاتكلم نفس الا باذنه » ويوسف : ٥٣ « وما أبرىء نفسى أن النفس لأمارة بالسوء » ٠ والرعد : ٣٣ « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » ٠ وابراهيم : ٥١ « ليجزى الله كل نفس ماكسبت » والنحل : ١١١ « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت » والاسراء ٣٣ : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » ٠ والكهف : ٧٤ « قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس » ٠ وسورة طه :١٥ « ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » ٠ والانبياء : ٣٥ « كل نفس ذائقة الموت ٠٠٠ » والفرقان : ٦٨ « والذين لايدعون مع الله الها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق » ٠ والعنكبوت : ٥٧ « كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون » ولقمان : ٢٨ « ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » ٠ والسجدة : ١٣ « ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها » ٠ ويس : ٥٤ ٠ « فاليوم لاتظلم نفس شيئا ٠٠ » والزمر : ٦ « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ٠٠ » وغافر : ١٧ « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » ٠ والجاثية : ٢٢ « وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت » وسورة ق : ٢١ « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » والحشر : ١٨ « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد ٠٠ » ٠ والمدثر : ٣٨ « كل نفس بما كسبت رهينة » ٠ والقيامة : ٢

« ولا أقسم بالنفس اللوامة » والنازعات : ٤٠ « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » • والتكوير : ١٤ « علمت نفس ماأحضرت » والانفطار : ٥ « علمت نفس ماقدمت وأخرت » والطارق : ٤ « ان كل نفس لما عليها حافظ » • والشمس : ٧ « ونفس وماسواها » • والبقرة : ٧٢ « واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها •• » والنساء : ٤ « •• فان طبن لكم عن شيء منه نفسا » • الاعراف : ٤٢ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الا وسعها » والكهف : ٧٤ « •• قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس » • والمؤمنون : ٦٢ « ولا نكلف نفسا الا وسعها •• » والقصص : ١٩ « قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا •• » المنافقون : ١١ « ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها » والطلاق : ٧ « •• لايكلف الله نفسا الا ماآتاها » • والنساء : ٧٩ « ماأصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك » • والاعراف : ٢٥ « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة » • الاسراء : ١٤ « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » والكهف : ٦ « فلعلك باخع نفسك على آثارهم •• » والاحزاب : ٣٧ « واتق الله وتخفي في نفسك ماالله مبديه » (٢٩) •

والقرآن الكريم حين يستخدم هذه الألفاظ : انسان ، نفس ، بشر ، روح لايستخدمها كمرادفات ، وانما لكل لفظ من هذه الألفاظ الاربعة دلالة خاصة تميزه عن غيره ، فالملاحظ من سياق الآيات التي عرضت للفظ « بشر » ان هذا اللفظ يعني الجانب المادي في الانسان ، فالمشركون يعترضون على أن يكون الرسول بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وحين يرد الرسول الكريم « هل كنت الا بشرا رسولا » فانه يقرر الجانب المادي في الانسان أي الجانب الجسماني وجميع بني الانسان يلتقون في هذا الجانب ، وقد ورد لفظ « بشر » في خمسة وثلاثين موضعا في القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعا في بشرية الرسل والأنبياء •

ولفظ « روح » يطلق على الجزء غير المادي في الانسان ، وأحيانا يطلق ويراد به جبريل عليه السلام • فصلته بالطبيعة الانسانية هنا أنه يعرض لجانب منها وهو جانب الروح • والروح لايدرك كنهها الا الله تعالى « قل

---

(٢٩) انظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ، دار الكتاب المصرية ، ١٣٦٤ هـ •

الروح من أمر ربى » ، والذى يمكن أن يدركه الانسان انما هو فيما تقوم به من وظائف • والروح محط السمو والترقى والاتصال بعالم الملكوت ، وهو الجانب النورانى فى الانسان •

ولفظ « نفس » يطلق فى القرآن الكريم ، ويراد به احيانا الانسان ككل فى جانبه الجسمى وجانبه الروحى ، يدعم هذا قوله تعالى « ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها » • فالتسوية انما تكون للجانب المادى وهو الجسم كقوله تعالى « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » • والهام الفجور والتقوى انما يكون لجانب الروحى فى الانسان •

وأحيانا يطلق لفظ « النفس » ويراد به بعض صفاتها مثل « ان النفس لأمارة بالسؤ » ومثل « ولا أقسم بالنفس اللوامة » •

أما لفظ « الانسان » فهو مأخوذ من مادة « أنس » وهذا يعنى أن الانسان ليس وحشيا ، وانما هو مدنى بالطبع • والقرآن الكريم يستخدم هـذا اللفظ بدلالات عديدة وان كانت تلتقى فى معنى واحد ، فالانسان قد يطلق ويراد به احيانا الكافر مثل قوله تعالى « قتل الانسان ماأكفره » ، « يأيها الانسان ماغرك بربك الكريم » • ويطلق ويراد به أحيانا أخرى حقيقة الانسان فهو جزع وهلع « خلق الانسان هلوعا » ظالم جاهل « انه كان ظلوما جهولا » متعجل فى الامور « خلق الانسان من عجل » • ضعيف « خلق الانسان ضعيفا » وهو يعيش فى الحياة يعانى ويكابد « لقد خلقنا الانسان فى كبد » • وحياته فى كدح مستمر « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » • وهو كثير الجدل والحوار « وكان الانسان أكثر شىء جدلا » والانسان بخيـل « وكان الانسان قتورا » وهو القادر على الابانه والافصاح عما فى النفس « خلق الانسان علمه البيان » • وهو مخلوق من نطفه ومن سلالة من طين « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » ومع أن الله تعالى قد نعت الانسان بهذه النعوت المختلفة من عجل وظلم وجـدال وبخل وغير ذلك الا أن هذه النعوت من ناحية أخرى تؤكد عظمة الانسان وأحقيته للخلافة فى الأرض ، فما لامة الله تعالى وأنبه ، وعاب عليه فعله هذا الا لانه لم يفد من القدرات التى منحها الله له والنعم العديدة التى أنعم

بها عليه • فعقاب الله للانسان هو عقاب المستخلف لخليفته الذى يستنهضه ويستحثه ويدفعه الى العودة لطاعته وعبادته والخضوع له •

واحتمال تبعات التكليف وامانة الانسان • ولقد ورد لفظ « الانسان » فى القرآن فى خمسة وستين موضعا كلها تؤكد هذه الميزة التى اختص بها من بين الكائنات وهى ميزة الاستخلاف فى الأرض • فالانسان كائن مادى روحى ، قد تجرفه نزعاته المادية فتصرفه عن هداية الله وطاعته • وقد تسمو به روحه فيرقى الى مستوى الملائكة • وحين يصفه الله تعالى بصفات ذميمة فذلك من قبيل التذكير والتنبيه والحث والايقاظ • وحين يمجده ويعظمه أمام ملائكته فذلك ليؤكد جدارته بالخلافة واستحقاقه لها بالايمان والعمل والعلم• «أيحسب الانسان أن يترك سدى » •

هذا هو الانسان أو هذه هى الطبيعة الانسانية كما تناولها القرآن الكريم فى تعبيره المعجز فالالفاظ الاربعة : بشر ، نفس ، روح ، انسان ، ألفاظ ذوات دلالات مختلفة ولكنها غير متناقضة ، ألفاظ تلقى الضوء على حقيقة الطبيعة الانسانية ومفهومها •

الطبيعة الانسانية فى الفكر الاسلامى :

بعد أن عرضنا لمفهوم الطبيعة الانسانية كما تناولها التعبير القرآنى نعرض هنا للطبيعة الانسانية فى جوانبها المختلفة والتى سبق تناولها فى بعض الفلسفات الغربية • هذه الجوانب هى : تركيب الانسان أو تكوينه - الحرية والجبرية - الخير والشر فيها - الوراثة والبيئة - الفردية والاجتماعية النوع •

ويمكن القول بادىء ذى بدء - بأن الاسلام يرتكز على مبدأ التكامل والتوازن فى تناوله لهذه الجوانب ، فهو لا يغلب جانبا على آخر ، وانما يحدث بينهما نوعا من التوازن بما يكفل لها وجودها الطبيعى ، ويجعلها قادرة على مزاولة دورها • وها هى الجوانب كما تناولها الاسلام وفسرها بعض المفكرين الاسلاميين •

١ - تكوين الطبيعة الانسانية :

فى تناولنا لبعض الفلسفات الغربية اتضح ان بعض الفلسفات كانت تدين بالنظرة الثنائية بمعنى تقسيم الطبيعة الانسانية الى جسم وروح ولا مجال للتكامل بينهما · كما اتضح أن بعض الفلسفات الاخرى لم تقل بالثنائية ، ولكنها قالت بالاحادية ، فالماركسية مثلا رأت أن الطبيعة الانسانية مادة فى حركتها وتغيرها ونموها ، وأن كل المظاهر التى تسمى شعورية ان هى الا اشكال مختلفة لتطور حركة المادة وتغيرها · وبعض الفلسفات غلب جانب الذات أو الروح على جانب الجسم كما يتضح لدى الوجودية · باستثناء البرجماتية التى قالت بضرورة التكامل بين الجسم والروح ، وان كانت تغلب جانب الجسم على الروح · أما تناول الاسلام للطبيعة الانسانية فى تكوينها فهو تناول المحيط بجوانبها ، العليم بخفاياها وقدراتها ، الخبير بعناصرها وتكاملها · وهذا أمر طبيعى فالاسلام هو دين الله ، والله تعالى هو خالق الطبيعة الانسانية ، وخلقها بالشكل الذى يجعلها قادرة على أداء رسالتها واستخلافها فى الأرض رغم ما فيها من تناقض يتضح هذا من خلال الآيات القرآنية التى تعرض للانسان وصفاته مثل قوله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » فهو مخلوق تصدر عنه الحسنة كما تصدر عنه السيئة · وهو يجمع بين نوازع الخير ونوازع الشر « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه » فالامشاج هى النوازع التى تعنى نوازع الخير ونوازع الشر كافة ، وهى التى تؤدى للاتجاهات المتباينة والأغراض المختلفة (٣٠) ·

والقرآن الكريم فى تناوله لتكوين الطبيعة الانسانية يقرر أن الانسان يتكون من مادة وروح يتضح هذا من قوله تعالى « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » الحجر : ٢٩ وقوله تعالى « الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » فالتسوية هنا للبدن ، ومعنى « سواك » أى جعلك مستوى الخلقة سالم الاعضاء متناسبها (٣١) · كما يتضح أيضا

---

(٣٠) منير أحمد القاضى ، الانسان والشيطان فى القرآن ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، ١٩٧١ م ، ص ص ١٠٥ - ١١٥ ·

(٣١) تفسير الجلالتين ، ص ٥٠٣ ·

من قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ،فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » • المؤمنون : ١٢ ـ ١٤ ، والآيات هنا تشير الى أن الانسان يتكون من جسم وروح • فالخلق الآخر يعنى الروح التى ينفخها الله فى الجسد • ويؤكد هذا أيضا قوله تعالى «الم يك نطفة من منى يمنى،ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى » القيامة : ٣٦ ـ ٣٩ • فالخلق والتسوية هما للبدن • وقوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء» آل عمران : ٦ ، ويقول الرسول الكريم « ان احدكم يجمع خلقه فى بطن امه أربعين يوما ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك • ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » (٣٢) •

فالقرآن الكريم والحديث الشريف يؤكدان أن الطبيعة الانسانية تتكون من الجسم والروح • ولفظ الروح يقصد منه المظاهر غير المادية فيشمل العقل والوجدان ، أو العقل والقلب • والقرآن الكريم به الكثير من الآيات التى تعرض للعقل أو لوظائفه من التفكير والتدبر والنظر والعلم والاعتبار والتعقل مثل قوله تعالى « •• ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » ومثل قوله تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ومثل قوله تعالى « فاعتبروا يا أولى الأبصار » الحشر : ٢ • ومثل قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » محمد : ٢٤ • ومثل قوله تعالى « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » الانفال : ٢٢ • ومثل قوله تعالى « ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون » الانفال : ٣٤ •

والقرآن الكريم أيضا به الكثير من الآيات التى تعرض للقلب ومظاهره الوجدانية مثل الحب « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » والكراهية مثل قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » والخوف مثل قوله تعالى « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وكظم الغيظ مثل قوله تعالى « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » • والرحمة مثل قوله تعالى

---

(٣٢) صحيح مسلم ، جـ ٨ ، القاهرة ، محمد على صبيح ، ص ٤٤ •

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ٠٠ » الفتح : ٢٩ ٠ والتعجل مثل قوله تعالى « خلق الانسان من عجل » والحسد مثل قوله تعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » النساء ٠ والحزن والفرح مثل قوله تعالى « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » الحديد : ٢٣ ٠ والضيق مثل قوله تعالى « واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » النحل : ١٢٧ ٠ وغير ذلك من المظاهر الشعورية ٠

وقد أشار القرآن الكريم لمكان القلب من الجسد وذلك فى قوله تعالى « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، انه عليم بذات الصدور » سورة الملك : ١٣ ٠ وفى قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء» ٠ فالملاحظ من الآيتين السابقتين أن القلب محله الصدر ٠ « وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » آل عمران : ١٥٤ ٠ كما أشار الرسول الكريم الى مكان القلب من الجسد عندما قال « ألا وان فى الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » ٠ وكذا أيضا فى قوله « ان الله لا ينظر الى صوركم ولا أجسادكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم ، التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا ويشير لصدره » ٠ فالقلب عضو من الاعضاء ، ومكانه الصدر ٠ ومع أن الابحاث الطبية الحديثة تؤكد أن المشاعر ليس موطنها القلب ، الا أنها لايمكن أن تنكر أثر هذه المشاعر على عضو القلب وأنه أكثر الاعضاء تأثرا واستجابة لها ٠ ويوضح هذا قوله تعالى «واذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » الأحزاب : ١٠ ٠ فالفزع الذى سيطر على المنافقين اتضح أثره فى علو وهبوط القلب حتى أنه بلغ الحنجرة ٠

ويمكن القول بأن القرآن الكريم يقسم الطبيعة الانسانية الى قسمين: جسم وروح ، أو مادة وغير مادة ٠ والروح تشمل العقل ٠ أى أن أجزاء الطبيعة الانسانية ثلاثة الجسم ، العقل ، القلب ٠

وهذا التقسيم لا يعنى أن كل جزء من هذه الأجزاء مستقل بذاته ، بل

هى متكاملة فيما بينها متعاونة من أجل غرض واحد هو الايمان باللـه والعمل بأوامـره ٠

ويتضح هذا من قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرونَ بها ، ولهم آذان لا يسمعون بهـا ، أولئك كالأنعام بل هم أضل »الاعـراف : ١٧٩ ٠ ومن قوله تعالى « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها. قل ادعوا شركاءكم ٠٠ » الأعراف : ١٧٩ ٠ وقوله تعالى « ختم اللـه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » البقـرة : ٧ ، وقوله تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » النـور : ٢٤ ٠

الجسم مكمل للروح ، والروح لا يستغنى عنها الجسم ، فالعقل بحاجة الى المعرفة والعلم ، ومن ثم فهو بحاجة الى الحواس الخمس كمصادر للمعرفـة٠ وهذه الحواس أعضاء فى البدن أى أن البدن بحواسه الخمس هو نوافذ المعرفة التى يستخدمها العقل فى رؤية العالم والاشياء من حول الانسان ٠ والقـلب وثيق الصلة بالعقل وكأنهما شىء واحد فقـد نسب اللـه تعالى الفقه أى الفهم الى القلب ٠ وكما يتضح أيضا فى قوله تعالى « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب » آل عمران : ١٩٠ ٠ فاللب هو القلب ، ويعنى هنا العقل ٠ وصلة العقل بالقلب تبدو من أن القلب هو موطن المشاعر والعواطف٠وهذه تمثل قوة دافعة فى سلوك الانسان،بل أحيانا تسيطر على سلوك الانسان كله ٠ ومن ثم فهذه القوة بحاجة الى ضابط يحكمها ، ومعيار يضبطها ، وفكر يوجهها ، وهذا ما يقوم بـه العقل فالعقل هو السلطة الداخلية التى تراقب رغبات الانسان وسلوكه ، أو هو الضمير الذى يحقق التوازن بين الداخل والخارج ٠ ويدعم هذا ما يطلق على العقل من أسماء مختلفة فهو « العقل » مأخوذ من مادة « عقـل » البعير أى كفها عن السير ٠ وهو «النهى» جمع نهية أى الذى ينهى الانسان عن السلوك الذميم ٠ وهو « الحجر » كما قال تعالى « هل فى ذلك قسم لذى حجر » أى الذى يحول بين الانسان وبين السـلوك المحظـور ٠

ورغم أن العقل والقلب قـد يختلفان ، فيجمع القلب ، ويقوم العقل بكبح

جماحه الا انهما فى الانسان السوى أو فى المسلم الكامل يتفقان ويتحدان فيما بينهما · فما يشعر بـه القلب يجد لـه سندا من العقل · واذا كان الايمان لـه حرارة فى القلب بحيث يصير منبع المشاعر فان العقل هو السبيل الى هـذا الايمان فضمير المؤمن يلتقى مع شعوره ، وطاعة المؤمن تلتقى مع حبـه للـه·

وهكذا فالعقل معرفة وعلم والقلب رغبة وارادة والجسم قدرة وتنفيذ · والجميع يعمل فى اتساق كامل ، وتعاون تـام ·

ويقترب من هذا ما يذهب اليه علم النفس من تقسيم الذات الى « الهـو والأنـا والأنـا الأعلى فالهو » يقابله الجسم ، والأنا يقابله القلب ، والأنـا الأعلى يقابله العقـل ·

والقلب والعقل يكونان ما يعرف فى عـلم النفس بمفهوم الذات ، فهـو يعنى « تكوينا معرفيا منظما موحدا ومتعلما للمدركات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات · وهو أساس تنظيم السلوك قال تعالى « كـل نفس بما كسبت رهينة » والذات هى ما يعبر عنها القرآن الكريم بالنفس الملهمة « فألهمها فجورها وتقواها » ، واللوامة « ولا أقسم بالنفس اللوامة » والبصيرة « بل الانسان على نفسه بصيرة » ، والأمارة بالسؤ « ان النفس لأمـارة بالسؤ » (٣٣) ·

فالطبيعة الانسانية كما يوضحها القرآن الكريم هى جسم وقلب وعقـل أو جسـم وروح متكاملان · والقـلب والعقل مظهران للروح ، والاسـلام يصرف الانسان عن البحث فى حقيقة الروح نفسها « قـل الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ، فهذه المسألة تعد أعضل مسائل العلم والفلسفة منذ فـكر الانسان فى حقائق الاشياء « ومن معجزات القرآن أنه وضعها الوضع الصحيح من الفلسفة والعلم ، وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنهـا الناس بغير استثناء · ويزيد فى تقدير هذه العجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الانسانى أن يخوض فى المسألة الالهية ، وأن يصل الى الايمان باللـه

---

(٣٣) حامد عبد السلام زهران ، « مفهـوم الذات والسـلوك التربوى للمعلمين بين الواقع والمثالية » **مجلة كلية التربية** ، السنة الثانية ، العدد الثالث، جمادى الثانية ١٣٩٦ هـ - يونيو ١٩٧٦ م ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ·

عن طريق البحث والاستدلال والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة ، فالعقل يهتدى الى وجود اللـه من النظر فى وجود الاشياء ولكنه لايهتدى الى حقيقة الروح من هذا الطريق (٣٤) ٠

وقد حاول بعض الفلاسفة المسلمين أن يحللوا الطبيعة الانسانية ، ويقفوا على عناصرها ومكوناتها ومنهم الكندى ، الفارابى ، ابن سينا ، اخوان الصفا ، الغزالى ، ابن رشد ، فخر الدين الرازى ٠

ويمكن القول بأن الفلسفة الاسلامية فى تناولها لتكوين الطبيعة الانسانية كانت متأثرة باتجاهين اتجاه افلاطون ، واتجاه أرسطو ٠ وهذا أمر طبيعى بعد أن أفاد المفكرون الاسلاميون ، والفكر العربى عموما من الترجمات المختلفة عن اليونانية ، ومما كان لـه أثره فى تكوين الفكر العربى ، ولم يعد هذا مجرد فرض بل صار من الحقائق الثابتة ٠

رأى الـكنـــدى :

والكندى (١٨٥ ــ ٢٥٢ هـ) يعرف النفس فيقول « ان النفس بسيطة ذات شرف وكمال ، عظيمة الشأن جوهرها من جوهر البارىء عـز وجـل لقيـاس ضياء الشمس من الشمس ٠٠ وهى منفردة عن هذا الجسم مباينة لـه ٠ ٠ وأن جوهرها جوهر الهى روحانى ، بما يرى من شرف طباعها ، ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب ٠٠ وهذه النفس التى هى من نور البارى اذا هى فارقت البدن علمت كل ما فى العالم ، ولم يخف عليها خافية ٠٠ وصارت فى عالم العقل فوق الفلك ٠٠ وصارت تنظر بنور البارى ٠٠ وهذه النفس لا تنام البته ، لأنها فى وقت النوم تترك استعمال الحواس ، وتبقى محصورة ليست بمجردة على حدتها ، وتعلم كل ما فى العوالم وكل ظاهر وخفى » (٣٥)٠

ويتأثر الكندى بتقسيم أفلاطون فيقسم الى ثلاث قوى : القوة الشهوانية

---

(٣٤) عباس محمود العقاد ، الفلسفة القرآنية ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ م ، ص ١١٢ ٠

(٣٥) محمد عبد الهادى أبو ريدة ، رسائل الكندى الفلسفية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ م ، ص ص ٢٧٣ ــ ٢٧٩ ٠

التى شبهها أفلاطون بالخنزير ، والقوة الغضبية التى شبهها بالكلب ، والقوة العقلية التى شبهها بالملك ٠

● **رأى الفـــــارابى :**

والفارابى (٢٥٧ ـ ٣٣٩ هـ) يقسم النفس الانسانية الى خمس قوى : القوة الغذية ، القوة الحاسة ، القوة النزوعية ، القوة المتخيلة ، القوة الناطقة٠

والمقصود بالقوة الغاذية هى تلك القوة التى تحفظ على الكائن الحى حياته ، ويشترك فى هذه القوة مع الانسان النبات والحيوان ٠

والقوة النزوعية هى التى يطلب بها الانسان الشىء أو يهرب منـه ، ويشتاقه أو يكرهه ، ويؤثره أو يتجنبه ، وبها يكون البغض والمحبة والصداقة والعداوة والخوف والامن والغضب والرضا والشهوة والرحمة عوارض النفس٠

والقوة الحاسة : هى القوة التى تدرك بها المحسوسات والطعوم والروائح والأصوات والالوان والحواس الخمس هى الطريق التى تستفيد منهـا النفس معرفتها بالاشياء الخارجية ٠

والقوة المتخيلة هى التى تحفظ رسوم المحسوسات بعد غيبتها عن الحس، وتركب بعضها الى بعض وتفصل بعضها عن بعض فى اليقظة والنوم،تركيبات وتفصيلات بعضها صادق ، وبعضها كاذب ، ولهـا مع ذلك ادراك النافـع والضار ، واللذيذ والمؤذى ، دون القبح من الافعال والاخلاق ٠ وهى وسط بين القوة الحاسة والقوة الناطقة ٠

والقوة الناطقة وهى خاصة بالانسان ، وتمكنه من ادراك المعقولات ، والتمييز بين الجميل والقبيح واكتساب الصناعات والعلوم ٠ وهى تنقسم الى قسمين: عملى يقوم باستنباط ما يجب فعله من الأفعال الانسانية ٠ وعلمى أو نظـرى يتم بـه جوهر النفس ويصير جوهرا عقليا بالفعل (٣٦) ٠

والفارابى مع أنه يقول بهذه القوى الا أنه يؤكد وحدة النفس فهى على

---

(٣٦) جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط ١ ، بيروت ، دار الكتاب اللبانى ، ١٩٧٣ م ، ص ص ١٥٥ ـ ١٥٨ ٠

كثرة قواها واختلاف أجزائها لا تؤلف الا نفسا واحدة ، فكل قوة من هذه القوى تقوم على التى تسبقها ٠

● **رأى ابن سينا :**

وابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) يقول الانسان مركب من مادة وصورة كغيره من الكائنات ، فالمادة هى البدن ، والصورة هى النفس٠ومن ثم فالنفس صورة للبدن أو على حد تعبيره عن النفس انها كمال أول لجسم طبيعى آلى ٠ وقد أخذ ابن سينا هذا التعريف من كتاب النفس لأرسطو وهو ترجمة لتعريف أرسطو فلفظ « كمال » ترجمة دقيقة لكلمة « أنتليشيا » (٣٧) ٠

وقد عنى ابن سينا عناية بالغة بقوى النفس وتحليلها وتصنيفها وترتيبها ترتيبا تصاعديا من أدنى الى أعلى بحيث يخدم أدناها أعلاها ، ويرأس كل منها ، قبله ، فابن سينا يستخدم المنهج التحليلى والمنهج التركيبى (٣٨) ٠

وقوى النفس هى ما يسميها ابن سينا السر ، أما العلن فهو الجسم بأعضائه المختلفة ٠ ويرى ابن سينا أن النفس قد هبطت الى الجسم من المحل الأرفع على حد تعبير « سينيته » المشهورة « هبطت اليك من المحل الأرفع » ٠

والنفس عند ابن سينا ثلاث : نفس نباتية ، ونفس حيوانية ، ونفس انسانية ٠

والنفس النباتية تنقسم الى ثلاث قوى : قوى غاذية تحيل الجسم الآخر الى شاكلة الجسم الذى هى فيه ٠ وقوة منمية تضيف الى الجسم زيادة فى أقطاره طولا وعرضا ٠ وقوة مولدة تأخذ من الجسم الذى هى فيه جزءا هو شبيه له بالقوة فتفعل فيه بالستمداد أجسام أخرى تتشبه به من التخلق والتمزيج٠

والنفس الحيوانية ، وهى تختص بجذب النافع ودفع الضار وتنقسم

---

(٣٧) ابراهيم مدكور ، فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ م ، ص ١٥٧ ٠

(٣٨) محمد عثمان نجاتى ، الادراك الحسى عند ابن سينا ، ط ٢ ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١ ، ص ٣٢ ٠

الى قسمين : قوة محركة وقوة مدركة ، والمحركة لهـا قوتان : باعثة ، فاعلة. والباعثة هي القوة الزوعية والشوقية ولها شعبتان قوة شهوانية وقوة غضبية . والفاعلة هي القوة التى تنبعث فى الاعصاب والعضلات فتجذب أو ترخى . والقوة المدركة تنقسم الى ادراك من الخارج أو ادراك من الداخل . والادراك من الخارج يشمل الحواس الخمس : قوة البصر ، قوة السمع ، قوة الشم ، قوة الذوق ، قوة اللمس . والقوة الاخيرة تتضمن أربع قوى : قوة حاكمة فى التضاد الذى بين الحار والبارد . وقوة حاكمة فى التضاد الذى بين اليابس والرطب ، وقوة حاكمة فى التضاد الذى بين الصلب واللين ، وقوة حاكمة فى التضاد الذى بين الأملس والأخشن .

والادراك من الداخل ، اما أن يكون ادراكا لصور المحسوسات ، أو ادراكا لمعانيها . والأول تسهم فيه الحواس مع الادراك الداخلى . والثانى ادراك عقلى ويقتصر فيه على العقل وحده والفرق بين الادراكين كالفرق بين ادراك الشاة للذئب ، وادراكها لعداوته ، ففى الحالة الأولى تدرك شكل الذئب وهيئته ولونه ، وفى الثانية تدرك معنى العداوة التى يحملها الذئب لها فى نفسه(٣٩). وللادراك من الداخل قوى ، وهى الحواس الخمس الباطنية : الحس المشترك، والمصورة ، والمتخيلة ، والوهم ، والذاكرة .

والنفس الانسانية أو النفس الناطقة تنقسم الى قوة عاملة وقوة عالمة ، وكل واحدة منهما تسمى عقلا . والقوة العاملة هى مبدأ محرك لبدن الانسان الى الأفعال الجزئية الخاصة بالروية فيما ينبغى أن يفعل ويترك . وبـه تتعلق سياسة البدن . واليه تنتسب الأخلاق . والقوة العالمة وتسمى العقل النظرى ، ووظيفتها ادراك الصور الكلية المجردة عن المادة . وللعقل النظرى درجات فهو اما ان يكون كالقوة المطلقة التى لم تقبل بعد شيئا من الـكمال ويسمى العقل الهيولانى . واذا حصلت فى العقـــل المعقولات الاولى وهى البديهيات مثل الكل أعظم من الجزء ، والتى يتوصل بها الى المعقولات الثانية سمى العقل « عقلا بالملكة » . واذا حصلت المعقولات الثانية بدون مطالعـــة

---

(٣٩) عبد الرحمن ء بدالرحمن النقيب ، الآراء التربوية فى كتابات ابن سينا ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، كلية التربية ، ١٩٦٩ م ، ٦٣ - ٧٨ .

ومراجعة اليها بالفعل سمى « عقلا بالفعل » واذا طالعها بالفعل وعقلها سمى « عقـلا مستفادا » (٤٠) ٠

وعن علاقة النفس بالبدن يرى ابن سينا أن الانسان مركب من المـادة والصورة فالمادة هى البدن باعضائه المختلفة ، والصورة هى النفس بقواهـا المختلفة يقول ابن سينا « كل جسم مركب من هيولى وصورة ٠ والصورة هى التى بها الفعل ، والمادة هى التى بها الانفعال ، والجسم الحى يخالف غيـر الحى بنفسه لابجدته ، فالنفس - اذا - صورة (٤١) ٠

● **رأى اخـــوان الصفـــا :**

أما اخوان الصفا وهى جماعة أحاطت نفسها بستار من السرية التامـة والتكتم ، وترجع رسائلهم التى الفوها الى القرن العاشر الميلادى - الرابع الهجرى ٠ ورغم هذه السرية فان بعض كتب التاريخ ذكرت بعضا منهم مثل أبو سليمان البستى المعروف بالمقدس ٠ وعلى بن هارون الزنجانى ٠

ولم يؤلف بين أعضاء هذه الجماعة المذهب الشيعى فحسب ، بل كانت هـذه الجماعة تمثل نزعـة فـكرية خاصة اذ يغـلب عليهـــا طـابع المذهب الاسماعيلى (٤٢) ٠

وقد هدف اخوان الصفا من وراء مذهبهم هذا الى هدفين : هدف سياسى وهدف دينى ، أى كانوا يريـدون التوفيق بين الدين والفلسـفة ، وكانت حاجتهم الى ذلك حاجة البيئة والوقت والزمن فقد انضوى تحت لواء الاسلام العديد من الأجناس والشعوب من ذوى الديانات المختلفة ، فكان لابد من المجتمع والتوفيق بين الأشتات المختلفة ، أى التوفيق بين هذه الآراء المختلفة يونانية

---

(٤٠) محمد عثمان نجاتى ، الادراك الحسى عند ابن سينا ، (مرجع سابق)، ص ٣٤ ، ٣٥ ٠

(٤١) ابن سينا ، أحوال النفس ، نشر أحمد فؤاد الاهوانى ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٣٧١ هـ ص ص ١٠٨ - ١١٠ ، وابن سينا ، النجاة، القاهرة ، البابى الحلبى ، ١٣٥٧ هـ ، ص ١٨٩ وما بعدها ٠

(٤٢) هنرى كوربان ، (ترجمة نصير مروة ، حسن قبيس) ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ط ١ ، لبنان - بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ٢١٠ ٠

كانت أم فارسية أم هندية أم مسيحية تحت لواء الاسلام (٤٣) ٠

وقد وجهت دعوتهم للذين لديهم استعداد وتقبل لفهم ماوراء الشريعة ٠ فالشريعة لاتنجح الا فى شفاء النفوس المريضة ٠ أما من يدين بدعوتهم فلابد أن يحيا على شاكلة الله ٠ وبهذا فان فلسفتهم التعليمية كانت فى عداد فلسفة النبوة ٠

ورسائلهم التى وعاها التراث تشمل جميع فروع المعرفة ، وتعطى لجهود الجنس البشرى معناها وحقها ٠ ورسائلهم تتألف من اثنتين وخمسين رسالة٠ وتنقسم الى أربعة أقسام : الرسائل التعليمية الرياضية والمنطقية وهى أربع عشرة رسالة ٠ والرسالة الطبيعية بما فيها علم النفس وهى سبع عشرة رسالة ٠ والرسائل الماورائية وهى عشر رسائل ٠ والرسائل الناموسية الالهية الفلكية وهى احدى عشرة رسالة ٠ ومن حيث نظام اخوان الصفا فهو يحتوى على أربع مراتب وفقا للاستعداد الروحى :

١ ـ الطبقة الأولى تتألف من شبان تتراوح أعمارهم بين خمس عشرة وثلاثين عاما ، ويجب أن تنشأ نفوسهم على الفطرة ٠

٢ ـ الطبقة الثانية وتتألف من رجال تتراوح اعمارهم بين الثلاثين والأربعين عاما ، هؤلاء تفتح لهم أبواب الحكمة الدنيوية ، ويتلقون معرفة الاشياء بطريق الرمز ٠

٣ ـ الطبقة الثالثة وهى تتألف من رجال يزيد عمرهم على الأربعين بحيث يصبح بوسع المستجيب أن يطلع على أسرار الحقيقة الروحية المستترة وراء الكلام الظاهر من الشريعة ٠

٤ ـ الطبقة الرابعة وهى تتألف من رجال يزيد عمرهم على الخمسين وهؤلاء

---

(٤٣) احمد فؤاد الاهوانى ، معانى الفلسفة ، ط ١ ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م ، ص ٤٥ ٠

تنكشف لهم الحقيقة الروحيـة الباطنية ، ويصيرون أشـبه بالملائكة المقربين (٤٤) .

واخوان الصفا فى تناولهم لتكوين الطبيعة الانسانية يقسمون الانسان الى جسم ونفس ، أى روح وبدن ، ويرون أن الجوهر الحقيقى للانسان هـو النفس أو الروح ، فالنفس حاملة للجسم ، وليس العكس . يقول اخوان الصفا « واعلم أنه (الجسم) محمول لاحامل - كما ظن كثير ممن لاعلم عندهم ولامعرفة معهم أن الجسم حامل النفس ، وأنها زبدته وصفوة طبائعه ، وأنها تقـوى بقوة الغذاء وتضعف بضعفه . وليس الأمر على ماظنوا ، ولا القضية كمـا تواهموا . وانما النفس حاملة للجسم وأعراضه ، وهى الذاهبة به فى الجهـات التى يجب لها » (٤٥) .

ويقسمون قوى النفس الى :

١ - قوى حساسية . ويقصدون بها الحواس الخمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

٢ - قوى روحانية . وهى تتالف من المتخيلة والفكرة والمحافظة ، والناطقة والصانعة .

٣ - قـوى طبيعية . وهى تشـمل النباتية والحيوانية والناطقة . وهـذه القوى ليست متباينة . بل هى متضامة متنقة ، تصدر من أصل واحد كالاغصان التى تنبت من الشجرة (٤٦) .

والانسان قد خلق متوجها الى الله ، ، والاجساد ان هى الا أعراف يقف

---

(٤٤) هنرى كوربان ، تاريخ الفلسفة الاسلامية (مرجع سابق) ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٤٥) جبور عبد النور ، اخوان الصفا ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١ م، ص ١١٤ .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ص ٤٣ - ٤٦ .

عليها الناس انتظارا للخلاص فالانسان مكون من جسد فان ، ونفس خالدة • ومع أن الجسم فان الا أن النفس لايمكن أن تستغنى عن الجسد فبه تستكمل فضائلها فالجسم هو واسطتها الى تلقى العلوم بالحس واللمس ، ثم تجريدها الى صور كلية مركبة • وهذا هو نهاية المطاف للنفس • والجسد محتاج للنفس فلولاها لما كان يقال جسم ولما كان الجسد فانيا فان على الانسان أن يوجـــه عنايته للنفس (٤٧) •

*** رأى الغـزالى :**

يرى الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) أن الانسان يحتل مكانا وسطا بين الملائكة والحيوان ويقول ان الله خلق آدم على صورته ، وفقا للحديث الشريف « اذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فان الله خلق آدم على صورته » (٤٨)•

والانسان فى رأى الغزالى صورة مصغرة للعالم الأكبر ، وهو يتكون من جسم وروح والجسم مركب من المادة والصورة ، وهو خاضع لعوامل التغير والفساد ، أما الروح فهى نورانية الهية ترجع الى عالم الأمر • ولا تتغير أو تفنى وعالم الأمر أسمى من عالم الشهادة ، والروح بالتالى أسمى من الجسد • ويطلع الجسد على عالم الشهادة بحواسه ، أما الروح فهى تدرك بالبصيرة • والروح لاتتغير الا اذا اتصلت بالجسد • وهى فى جوهرها نقية توافة للعالم طالبة له • واذا امكن لها أن تقهر الجسد وتتغلب على شهواته استطاعت أن تصل الى الكمال والسعادة فى الدنيا والآخرة (٤٩) •

ويذكر الغزالى أن هناك الفاظا أربعة مترادفة على النفس وهى : النفس،

---

(٤٧) نادية يوسف ابراهيم ، فلسفة التربية عند اخوان الصفا ، ورسالة رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة عين شمس ، كلية التربية ، ١٩٧٣ م، ص ١٢٧ ومابعدها •

(٤٨) مسلم ، صحيح مسلم ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٢٧ هـ •

(٤٩) محمد نبيل نوفل ، وأبو حامد الغزالى ، فلسفته وآراؤه فى التربية والتعليم ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة عين شمس ، كلية التربية ، ١٩٦٧ م ، ص ٩٦ ومابعدها •

والقلب ، والروح ، والعقل • فالنفس قد يراد بها المعنى الجامع للصفات المذمومة وهى القوى الحيوانية • وقد يراد بها حقيقة الآدمى وذاته • والقلب قد يطلق ويراد به اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى جوف الانسان من جانب اليسار • وقد يطلق ويراد به الروح الانسانى المتحمل لأمانة الله المتحلى بالمعرفة المذكور فيه العلم بالفطرة الناطق بالتوحيد • والروح قد يطلق ويراد به البخار اللطيف الذى يصعد من منهج القلب ويتصاعد الى الدماغ وقد يطلق ويراد به الروح الذى فى مقابلة جميع الملائكة وهو روح القدس وقد يطلق ويراد به القرآن •

والعقل قد يطلق ويراد به العقل الأول ، كما يراد به النفس الانسانية ، كما قد يراد به صفة النفس (٥٠) •

والغزالى يقسم النفس الى انواع اربعة : نفس نباتية ، نفس حيوانية، ونفس انسانية ، نفس فلكية • ويعرف النفس النباتية بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يغتذى وينمو ويولد المثل • ويعرف النفس الحيوانية بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة مايدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة • ويعرف النفس الانسانية بانها كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة مايفعل الاباعيل بالاختيار العقلى • والاستنباط بالرأى ، ومن جهة مايدرك الأمور الكلية • او هى كمال اول للجسم ، مدرك له بالاختيار عن مبدأ نطقى أو عملى ، بالفعل أو بالقوة (٥١) •

والغزالى فى تحليله لقوى النفس الانسانية متأثر بابن سينا ، فهو يقسم قوى النفس الى : قوى حيوانية ، وقوى انسانية • والقوى الحيوانية تنقسم الى محركة ومدركة ، والمحركة اما أن تكون باعثة على الفعل بمعنى أنها تجذب

---

(٥٠) الغزالى . معارج القدس ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، ١٩٦٨ م ، ص ص ١٩ - ٢٤ •

(٥١) الغزالى ، (تحقيق سليمان دنيا) تهافت الفلاسفة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ م ، ص ٢٩٠ •

النافع وتدفع الضار (الشهوة والغضب) • والفاعلة هى قوة تنبعث فى العضلات والمدركة هى قوى مدركة من الظاهر وقوى مدركة من الباطن • والقوى الانسانية تنقسم الى قوة عاملة • وقوة عالمة ، وكل منهما تسمى عقلا (٥٢) •

وفى بيان العلاقة بين هذه القوى يذكر الغزالى ان القدرة على المعرفة عند الانسان موجودة فى القلب • والخبرة والمعرفة التى يكتسبها القلب يمكن ان تسمى بالعقل • وحاله العقل فى انسان معين تتوقف على نوع العلاقة التى تقوم بين القلب وبين الشهوة والغضب • ويمثل العقل وجميع علاقاته الحالة الفعلية لذروح فى الجسد • كما يمثل الاتجاه فى نموها ، وهذا مايعبر عنه عادة بالنفس (٥٣) •

وعن الغرائز يقول الغزالى أن الانسان قد ركبت فيه الغرائز ، ولكل غريزة لذة ، فغريزة الغضب خلقت للتشفى ، ولذتها فى الغلبة • والروح مكانها القلب ، وفى القلب غريزة تسمى النور الالهى ، وقد تسمى العقل أو البصيرة الباطنية ، وقد تسمى نور الايمان واليقين •

والغزالى يرتقى من مستوى التقسيم الثنائى للطبيعة الانسانية الى مستوى التكامل بين جميع أجزائها ، بهدف الوصول الى تحقيق المثل الاعلى للانسان • وهذا التكامل والانسجام لايتحقق الا فى ظل سيطرة الروح • وهذه السيطرة هى الخطوة الاولى نحو اكتساب اليقين (٥٤) •

*** رأى ابن رشـــد :**

يعرف ابن رشد (٥٢٠ ــ ٥٩٥ هـ) الطبيعة الانسانية فيذكر ان النفس

---

(٥٢) الغزالى ، معارج القدس ، (مرجع سابق) ص ص ٤٣ ــ ٥٦ ، سليما دنيا ، الحقيقة فى نظر الغزالى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ م ، ص ص ٢٥٧ ــ ٢٦٩ •

(٥٣) على عيسى عثمان (تعريب خيرى حماد) الانسان عند الغزالى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ م ، ص ١٢٦ •

(٥٤) محمد لبيب النجيحى ، فى الفكر التربوى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ م ، ص ص ٨٦ ــ ٩١ •

كمال أول لجسم طبيعي آلي • وعلى غرار أرسطو يقسم قوى النفس الى : قوة نباتية ، وقوة حساسة ، وقوة متخيلة ، وقوة نزوعية ، وقوة ناطقة • ويقسم النفس الناطقة الى : قوة نظرية ، وتسمى العقل النظرى ، وقوة عملية، وتسمى العقل العملى (٥٥) •

*** رأى الـــــرازى :**

يقسم الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) المخلوقات الى أربعة : الأول ماله عقل وحكمة وليس لـه طبيعة ولا شـهوة ، وهـــم الملائكة • والثانى ليس له عقل ولا حكمة ، وله طبيعة وشهوة ، وهو سائر الحيوانات • والثالث ليس له عقل أو حكمة ، ولا طبيعة وشهوة وهو الجماد • والرابع له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وهو الانسان •

ويذكر الرازى ان النفس البشرية شيء واحد ، وليس كلا مركبا من أشياء • والنفس البشرية هى مايشار اليها بلفظ « أنا » • ويقصد بها النفس المبصرة والسامعة والشامة والذائقة واللامسة وهى الموصوفة بعينها بالتخيل والفكر والتذكر وتدبير البدن واصلاحه وهى ليست جملة البدن أو جزءا منه • والنفس شيء غير الجسد •

ويقسم الرازى قوى النفس الانسانية الى ثلاث قوى : قوى نباتية ، وقوى حيوانية ، وتشمل القوى المحركة والمدركة ، وقوى انسانية وهى نظرية وعملية (٥٦) •

والملاحظ أن آراء هـؤلاء الفلاسفة يبـدو فيها التأثر الشديد بالفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أفلاطون وأرسطو •

---

(٥٥) جميل صليبا . تاريخ الفلسفة العربية (مرجع سابق) ص ص ٤٩١ ـ ٤٩٤ •

(٥٦) الامام فخر الدين بن محمد بن عمر الرازى (تحقيق محمد صغير حسن المعصومى) ، كتاب النفس والروح وشرح قواهما ، القاهرة ، مكتبة المتنبى ، ١٩٦٨ م ، ص ٧٧ •

*** رأى محمد عبده :**

أما الامام محمد عبده المفكر الاسلامى الحديث (١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) فيرى أن الله قد منح الانسان الحواس التى يدرك بها ماتحتاج اليه نفسه فى حفظها وتوفير منافعها • كما جعل له من العقل مايميز به بين الحق والباطل ، والضار والنافع • وزوده بالوجدان لادراك مايحدث فى النفس من ميول ورغبات • والانسان بحاجة للعقل والوجدان ، فكلاهما يعين الآخر • والعلم الصحيح مقوم للوجدان • والوجدان السليم من أشد أعوان العلم • ويذكر أن حاجات الانسان وقواه المدركة تختلف باختلاف الأفراد والشعوب ، نظرا لاختلاف الجنس والجو وأحوال المعيشة (٥٧) •

ويذكر ان الله وهب الانسان ثلاث قوى تميز بها عن الحيوان هى : الذاكرة ، والمخيلة ، والمدركة • فالذاكرة تستشير صور الماضى • والمخيلة تجسم من المذكور ومايحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه محسوس ، ثم تنشىء له مثال لذة او ألم فى المستقبل يشبه ماكان بالماضى ، فيلجأ الانسان للفكر لتدبير الوسيلة (٥٨) •

فالامام محمد عبده يقول بالبدن والروح ، ويرى أنهما متكاملان ، ومن خلالهما تتكون الطبيعة الانسانية بعناصرها الثلاثة : الحواس ، والعقل ، والوجدان •

*** رأى العقـــاد :**

يرى العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤ م) ان الروح غير النفس ، فالروح أقرب الى الحياة الباقية وأخفى عن المدارك الحسية • وهى الجانب الذى اختص الله بعلمه • أما النفس فهى اقرب الى الطبع او القوة الحيوية التى تشمل الارادة ،

---

(٥٧) تشارلس آدمس ، الاسلام والتجديد فى مصر (مرجع سابق) ص ١٤١ ، ١٤٢ •

(٥٨) الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ط ١٥ ، القاهرة ، دار المنار ، ١٣٧٢ هـ ، ص ٧٤ •

والغريزة • وتعمل واعيه وغير واعية • وهى تأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التى يدركها النوم ، ويزعجها القتل ، وتحس النعمة والعذاب ، وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ماتعمل من حسنة أو سيئة •

والذات الانسانية تشمل النفس والروح والعقل • وكل منها تدل على الذات الانسانية فى حالة من حالاتها (٥٩) •

ننتقل بعد هذا الى الحديث عن الجانب الثانى من جوانب الطبيعة الانسانية وهو :

٢ - الوراثة والبيئة فى الطبيعة الانسانية :

والسؤال هنا : هل الطبيعة الانسانية تتأثر بالوراثة أو بالبيئة أو بهما معا ؟ •

وقد قام الكثير من العلماء والباحثين فى مجال علم النفس ، وعلم الوراثة ، وعلم الاجتماع بدراسات عديدة ، وتجارب مختلفة ، بعضها يقوم على التفسير النظرى ، وبعضها الآخر يعتمد على التفسير التجريبى •

ورغم كثرة الدراسات ووفرتها ، فما تزال الاجابة اليقينية عن هـذا السؤال مشكلة بدأت مع بداية ظهور هذه الدراسات • فهناك من يرجع السلوك الانسانى لعامل الوراثة وهناك من يرجعها للبيئة ، وهناك من يرجعها اليهما معا •

ومن أبرز الدراسات التى أخذت جانب الوراثة ، تلك النظرية الغرضية التى وضعها « وليام مكدوجل » والتى أكد فيها دور الوراثة ، فعزا سلوك الانسان لمجموعة من الغرائز التى يولد الانسان مزودا بها •

وقد وضع « مكدوجل » فى ١٩١٠ م قائمة بأحدى عشرة غريزة • ثم

---

(٥٩) عباس محمود العقاد ، الانسان فى القرآن الكريم ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ٣٤ ، ٣٢ •

زادها فى ١٩٢٣ م الى أربع عشرة غريزة ، وهى : غريزة الوالدية ، والمقاتلة ، والاستطلاع ، الخلاص (الهرب) ، البحث عن الطعام ، النفور ، الاستغاثة ، والغريزة الجنسية ، والخنوع ، والتسلط ، والتملك ، والحل والتركيب ، والغريزة الاجتماعية ، والبحث عن الراحة ، والضحك ، والنوم ، والتنقل ، والعطس ، والكحة (٦٠) ٠

ويميل معظم علماء الاجتماع الى القول بانتقال الصفات المكتسبة تحت تأثير البيئة الجغرافية والاجتماعية ومطالب الحياة عن طريق الوراثة ٠

ويذكر بعض منهم أن الوراثة هى كل شىء فى حياة المجتمع والانسان وهى تصب الفرد صبا فى قوالبها الخاصة من جميع نواحيه الجسمية والعقلية والخلقية ٠ وهى تفرض عليه أوضاعا خاصة ، لايجد الفرد بدا من الخضوع لها ، فيتصرف بحكم ماورثه من قدرات واستعدادات ، ويتشكل سلوكه الاجتماعى فى ضوء ذلك ٠ وبذا تكون الحياة الاجتماعية صورة من الاستعدادات الموروثة التى انتقلت من الاصول الى الفروع ولا يملك المجتمع ازاءها تعديلا أو تبديلا (٦١) ٠

* أما أبرز الدراسات التى أخذت بالبيئة ، فهى تلك الدراسة التى قام بها « جون واطس » رائد السلوكيين ، فقد ذكر أن البيئة قادرة على تشكيل الانسان ، بما فى ذلك قدراته العقلية وبالاضافة الى هذا ، هناك من علماء النفس من ينادى اليوم باستحالة تصور انسان بلا وراثة ولا بيئة ، بمعنى أن شخصية الانسان هى محصلة الوراثة والبيئة معا ٠ وسبب هذا الخلاف كما يرى « سارجنت ووليامسون » هو عدم وضوح مفهوم كل من الوراثة

---

(٦٠) محمد عماد الدين اسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوك ، ط٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م ، ص ١٠٥ ٠

(٦١) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ م ، ص ١٧٠ ٠

والبيئة (٦٢) ٠

فالبعض فسر الوراثة غيبيا نظريا ، فقال بالغرائز أو بالدافع الفطرى ، وحاول أن يضع له خصائص تميزه عن الدافع المكتسب ، فذكر من علاماته ، ظهوره منذ الميلاد أو من سن مبكرة ، وأنه عام مشترك بين أفراد النوع الواحد مهما اختلفت بنيلياتهم ، وان الانسان يشترك فيه مع الحيوانات العليا مثل دوافع العطش والنوم ى، وأن هدفه الطبيعى ثابت (٦٣) ٠

وقد وجه النقد لهذا التفسير ، ورمى بالعقم والجمود ، فهو لايسمح بالتغير أو الترقى ، ويجعل السلوك الانسانى سلوكا ثابتا جامدا كسلوك الحيوان ٠ والقول بالغرائز هو وليد ظروف سياسية ، هدفت الى الابقاء على الوضع الراهن ، بحيث يبرر حكم الاقلية الصفوة التى تجرى دماء الملك فى عروقها ٠ فهذا التفسير يجعل مصير الانسان مصيرا محتوما لايقبل التغيير ٠

وقد حاول البعض أن يفسر مفهوم الوراثة تفسيرا بيولوجيا ٠ فالخلية هى وحدة الكائنات الحية ، وهى تتكون من مادة غير متجانسة التركيب ، وهى الجسر الوحيد الذى تعبره الصفات المتوارثة من الاجيال السابقة الى الاجيال اللاحقة (٦٤) ٠

ويقال أن نواة الخلية تحتوى على « كروموزيات » وهذه تحتوى على « الجينات » وهى التى تحمل الصفات الوراثية ٠ ويقال ان المادة الوراثية فى الخلية تحتوى بشكل كامل على جميع عناصر الجسم وكل وحدة منها تختص بجزء معين من الجسم ، فبعض الجينات يؤثر على لون العين ، والبعض الآخر

---

(٦٢) أحمد عبد العزيز سلامه ، عبد السلام عبد الغفار ، علم النفس الاجتماعى ، القاهرة ، دار النهضة العربية (د ٠ت ٠) ، ص ص ٥٩ ـ ٦١ ٠

(٦٣) أحمد عزت راجع ، أصول علم النفس ، ط ٨ ، الاسكندرية ، المكتب المصرى الحديث ، ١٩٧٠ م ، ص ٨٥ ، ٨٦ ٠

(٦٤) عبد الحليم منتصر ، الوراثة والجنس ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ص ٨ ٠

يؤثر على لون البشرة ، وغيرها على شكل الجسم أو حجمه (٦٥) ٠

وقد حاول « مندل » أو يؤكد هذا بتجاربه على النبات والحيوان ، وقال بقانونية الشهيرين وهما انفصال الصفات ، ثم تنظيمها واقترانها ثانية ، فمثلا لو تزوج رجل ذو عيون زرقاء بامرأة ذات عيون زرقاء ، فان عيون أولادهما ستكون زرقاء ٠ واذا تزوج رجل ذو عيون عسلية بامرأة ذات زرقاء فان من أولادهما من تكون عيونه زرقاء ، ومنهم من تكون عيونه عسلية ٠ وقد استنتج « مندل » أن هناك صفات تورث ، وأنه لابد وأن تكون العوامل الوراثية فى الخلايا التناسلية (٦٦) ٠

* ومن الدراسات التجريبية فى هذا الصدد دراسة التوائم المتماثلة التى قام بها « تيومان » و « فريمان » و « هوتزنجر » (سنة ١٩٣٧ م) فقد قام هؤلاء العلماء بدراسة خمسين زوجا من التوائم المتشابهة ، وخمسين زوجا من التوائم المتماثلة ، وترك كل زوج منهم بحيث يعيش كل فرد فى الزوج بعيدا عن مثيله ، ثم أجريت المقارنات بينهم (كل زوج على حدة) بعد وصول الجميع لمرحلة النضج ، وقد أسفرت المقارنات عن أن التوأمين فى كل زوج من التوائم المتماثلة يتشابهان الى حد كبير فى الحجم البدنى ، وغير ذلك من المظاهر الجسمية ، وأن درجة الذكاء فى مستوى الذكاء أكبر من درجة التشابه فى السمات الشخصية ٠ فتأثير البيئة على نمو الانسان يقل بالانتقال من حجم الجسم الى ذكاء الفرد فشخصيته (٦٧) ٠

على أن هناك من يذهب الى أنه لاتجب المبالغة فى تقدير أثر الوراثة فى

---

(٦٥) محمد عماد الدين اسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوك (مرجع سابق) ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ٠

(٦٦) عبد الحليم منتصر ، الوراثة والجنس ، ١ مرجع سابق) ، ص ص ١٨ - ٢٢ ٠

(٦٧) أحمد عبد العزيز سلامة ، عبد السلام عبد الغفار ، علم النفس الاجتماعى (مرجع سابق) ص ٦٥ ٠

حياة الفرد والمجتمع فهى ليست بذات بال اذا ماقيست بالعوامل الأخرى المؤثرة فمن الممكن التدخل فى عامل الوراثة وتغيير اتجاهات الطبيعة ، وفقا لرغبات المجتمع وأهدافه • ومقتضيات الحياة الاجتماعية التى تتطور بسرعة ، وكذا بفضل التربية •

وغالى هؤلاء فى رأيهم فذهبوا الى أن المجتمع قادر على أن يقضى على آثار الوراثة ، بل سببه ماخضعوا له من ظروف (٦٨) •

والبيئة التى تؤثر فى سلوك الانسان تشمل البيئة غير العضوية ، والبيئة العضوية والبيئة فوق العضوية • وهناك علاقات متبادلة بين هذه المظاهر الثلاثة المثلة لجميع حقائق الوجود ، والانسان ، يشارك فى هذه البيئات يؤثر فيها ويتأثر بها ، وتشتد صلته بالبيئة العضوية ، وينفرد بالبيئة فوق العضوية ، وهى البيئة الاجتماعية •

وهذه البيئة الاجتماعية تشمل جميع مظاهر التراث الاجتماعى والثقافى والحضارى من عقائد وطقوس وتقاليد وعرف وعادات ومخترعات وفنون : فالبيئة الاجتماعية تشمل كل ماامتدت اليه يد الانسان ، وما استحدثته فى مختلف وجوه نشاطه الاجتماعى •

والبيئة الاجتماعية تعنى التراث الاجتماعى ، وهو يقابل التراث الطبيعى والبيولوجى وعناصر البيئة الاجتماعية هى : اللغة ، والعادات ، والعرف ، والتقاليد ، والتراث الثقافى والحضارى بجانبيه المادى والمعنوى (٦٩) •

والانسان يتأثر بالبيئة منذ أن يكون جنينا ، وليس تأثير البيئة بخاف على أحد ، فعادات النطق والمشى وتناول الطعام ، واكتساب المعرفة ، كلها تؤكد أثر البيئة فى تحديد الطبيعة الانسانية • ويمكن القول بأن الطبيعة الانسانية تتأثر بالوراثة كما تتأثر بالبيئة ، دون اغفال لأى منهما •

---

(٦٨) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه (مرجع سابق) ، ص ١٧٠ •

(٦٩) مصطفى الخشاب ، دراسة المجتمع ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩ - ١٩٧٠ م - الفصل الثالث - البيئة الاجتماعية وعناصرها •

والاسلام فى تناوله لهذه المشكلة يؤكد أثر كل من الوراثة والبيئة معا ، وأثر الوراثة يتضح فى قوله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » فالقرآن الكريم فى هذه الآية يؤكد دور الوراثة مع تثبيت البيئة ، فالأمة واحدة والناس مع ذلك مختلفون ، مختلفون فى الأمزجة والطباع. ويقول تعالى « قل كل يعمل على شاكلته » الاسراء : ٨٤ . ويتضح الاثر الوراثى أيضا فى قوله تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » التحريم : ١٠ ، ١١ . فالآيتان توضحان اثر الاستعداد الوراثى فى الايمان والكفر ، فامرأة نوح تكفر مع أنها زوج له ، وامرأة فرعون تؤمن مع ان زوجها كافر . ويتضح الاثر الوراثى أيضا فى قوله تعالى « ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك » فاطر : ٢٧ ، ٢٨ . ويؤكده أيضا قوله تعالى « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » آل عمران : ٣٣ . فالآية هنا توضح انتقاء الله تعالى لهؤلاء ، وانتقال هذا الانتقاء للاجيال اللاحقة « ذرية بعضها من بعض » ويؤكد هذا أيضا قول الرسول عليه السلام « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ، وقوله أيضا واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » (٧٠) .

واذا كان الاسلام يقر أثر الوراثة فهو أيضا يقر أثر البيئة ، فما كانت الدعوة الاسلامية لتنجح لو بقيت فى البيئة المكية . ولقد بدأت فى الانتشار والذيوع بالهجرة الى المدينة . ولعل هذا ما تفسره الدعوة الى الهجرة فى قوله تعالى « قال ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » فالهجرة معناها تعديل

---

(١٠) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٧ ، القاهرة ، محمد على صبيح ، د. ت. ، ص ٥٨ .
أنظر : صحيح الترمذى ، ج ١٣ ، ط ١ ، القاهرة ، مطبعة الصاوى ، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م ، ص ٩٤ .

فى البيئة وتغيير فيها بما يسمح للدين أن ينتشر ، وبما يسمح للفرد أن يمارس عبادة اللـه بعيدا عن الاضطهاد والتعذيب ٠

ولا يمكن تفسير هذا التحول الدينى والثورة على عبادة الاصنام الا بالبيئة ، تلك التى وضع معالمها الاسلام ٠

والوراثة والبيئة - وان كان يغلب أحدهما على الآخر أحيانا - متكاملان ٠ فالاستعداد الطيب مع البيئة الطيبة ينتجان الشخصية المؤمنة ٠ يؤكد هـذا قول الرسول الكريم « ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، وأبواه يهودانـه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعـا » (٧١) ٠

والاسلام بتأكيده للوراثة والبيئة معـا يرفض فكرة الخطيئة الموروثة التى قالت بها المسيحية قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » الاسراء : ١٥ ٠ وقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » المدثر ٣٨ وقال تعالى « وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتـابا يلقـاه منشورا ٠ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » الاسراء : ١٣ ، ١٤ ٠

والاسلام باقراره لأثر الوراثة والبيئة معا يحقق التفاوت بين الناس ، ويفتح الباب أمام الانسان لينطلق آملا فى تحقيق حياة سعيدة آمنة ٠ فهـو بما زوده اللـه به من استعدادات وقدرات قادر على أن يغير فى بيئته ، ويصلح من شأنه ، وهو بماسخر لـه من الاشياء وذلل لـه من الكائنات قادر على أن يستغل البيئة لصالحه ولصالح بنى الانسان « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور » الملك ١٥ ٠ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين « وسخر لكم الليل والنهار » ابراهيم ٣٣ « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » النحـل : ٨ ٠

فالوراثة والبيئة معـا يؤثران فى الطبيعـة الانسانية ، فالاستعدادات تنشط لاشباع حاجاتها من البيئة ، والبيئة تتولى تشكيل الاستعداد وتعديله

---

(٧١) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٨ ، القاهرة ، محمد على صبيح ، ص ٥٢ ٠

قـوة وضعفا • والتفاعل بين الوراثة والبيئة فى ظل التوجيه الاسلامى ، وتحت ضوابطه يحقق الخير للانسان وللانسانية • ويتضح هذا فى تهذيب الاسلام للغرائز الفطرية فقد هذب الغريزة الجنسية بالزواج ، وهذب التملك بالزكاة، وهذب غريزة السيطرة بالشورى وهذب غريزة الاجتماع بالتعاون على البـر والتقوى • وهذب غريزة المغامرة بالشجاعة فى الحق ، وهذب غريزة التنافس، بالتنافس فى مجال الطاعة والجهاد فى سبيل اللـه • وهذب غريزة الجـوع والعطش بالصوم • وهذب غريزة الغضب بالحلم ، وهذب حب الانتقام بالعفو، الى غير ذلك من الغرائز •

وهذا يؤكد ان الاسلام يقر بعامل الوراثة كما يقر بعامل البيئة فى سلوك الانسان ، فالبيئة التى أرادها الاسلام هى البيئة التى تتولى تطوير وتهذيب الميول والاستعدادات بالشكل الذى يضمن لهـا اشباعها ولكن فى غير شراهة • وهنا تكون الفروق الفردية ، ويكون التفاوت بين الناس كل حسب طاقته وجهده « لا يكلف اللـه نفسا الا وسعها » •

ومع التفاعل بين الوراثة والبيئة يكون التفاضل بين الناس ، مع التفاضل بينهم يتحقق التكامل بين أجزاء المجتمع • ومع التكامل بين أجزاء المجتمع تتحقق الحياة ويتحقق البقـاء •

٣ - الخير والشر فى الطبيعـة الانسانية :

بعد أن عرضنا لجانب البيئة والوراثة وأثرهما فى الطبيعة الانسانية ، يهمنا أن نعرض لجانب آخر وثيق الصلة بالجانب السابق ، وهو جانب الخير والشر فى الطبيعة الانسانية •

ولقد كثرت الفلسفات وتنوعت الآراء التى تناولت هذا الجانب ، فهناك من ذهب الى القول بأن الطبيعة الانسانية شريرة بطبعها ، وأن الشر جزء من تكوينها ، لذا فهو يشن الحروب ويقوم بالافساد والتدمير • ومن يمثل هؤلاء الفيلسوف « هوبز » الذى ذكر ان الانسان ذئب ازاء الانسان •

ومن أكبر المؤيدين لوجهة النظر هذه بعض رجال الدين المسيحى الذين قالوا والخطيئة الموروثة لذا نادوا بالزهد والعزوف عن الحياة والاخذ بأسلوب

الرهبنة واتباع سياسة التقشف حتى يمكن قتل الرغبات الجسدية فى الانسان أو قمع الشهوات فيـــه ٠

على أن وجهة النظر هذه قـد اتخذت أحيانا تبريرا للمسلك السياسى الذى انتجه الحكام المستبدون والذين يرفضون التغيير ويبقون على ما هـو قائم حتى يتسنى لهم تحقيق غاياتهم ومطامعهم الخاصة ٠ فينعمون هـــم بالسلطة والعيش الرغيد ، بينما تبقى الكثرة الغالبة تعانى الفقر والحرمان ، لا عليها الا أن تخضع لأوامر الحاكم وتستجيب لرغباته ٠

وأحيانا تلتقى رغبة الحاكم مع رغبة رجل الدين فيتخذان من وجهـة النظر هذه تبريرا لمسلك الاستغلال والعبودية ، فأفراد الشعب ذرو طبائـع شريرة ، ولا مناص من قمعها واذلالها ، عن طريق البطش مرة ، وعن طـريق الزهد فى الحياة والانصراف عنها املا فى حياة سعيدة وراء هذه الحياة الدنيا مـرة أخـــرى ٠

وواضح ما فى هذه النظرة من نزعة تتسم بالتشاؤم،والاستسلام،واليأس من الاصلاح والتغيير ، والركود لحياة الجمود والرتابة ٠

ويناقش هذه النظرة أخرى تؤكد أن الانسان خير بالطبع، وأن الشر هو أمر عارض عليه ، وأول من رأى ذلك فلاسفة الاغريق وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون وأرسطو ٠ فقد نادى « بنظرية المثل التى تقوم على أساس أن الانسان خير بطبعه ، وأن الشر لا يدخـل فى تركيبه ٠ وانما يدفع اليه دفعـا من خلال المجتمع وتنظيماته ٠ أما فى المجتمع المثالى حسب تصور أفلاطـون لـه ، فان الطبيعة الانسانية تتفتح فيه بكل ماركب فيه من خير (٧٢) ٠

ومن الذين قالوا بهذا أيضا « روسو » وأتباعه من أصحـاب المدرسـة الطبيعية ، فقد ذكر « روسو » أن الطبيعة الانسانية خيرة ، وأن كل شىء حسن ما لم تمتد اليه يـد الانسان ٠ وما يحدث من شر ليس مبعثه الطبيعة الانسانية

---

(٧٢) عبد الغنى النورى ، عبد الغنى عبود ، نحو فلسفة عربية للتربية ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٦ م ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ٠

بل سببه المجتمع بنظمه وأساليبه ، وما يفرضه على الطبيعة من قيود ظالمة مستبدة ٠

ومع أن هذه النظرة تتسم بالتفاؤل ، الا أنها تنطوى على جانب من المبالغة اذ من الصعب أن ينسب الخير الى الطبيعة الانسانية وحدها . ولو أن الأمر كذلك لما كان هناك مبرر لوجود المجتمع بنظمه وعاداته وتقاليد ، ولما كانت هناك حاجة للتشريع والدستور ٠ ولأصبح وجود المجتمع عبثا ٠ ان تصرف الطبيعة الانسانية بمحض طبيعتها لايمكن خيرا فى كل الحالات ٠ ولو أن الطبيعة الانسانية كانت خيرة لما تنازع الناس ولما اختلفوا فيما بينهم ، ولعاشوا فى سعادة واخاء وهذا ما تؤكده الحياة البدائية الهمجية التى تقوم على القوة والعنف وحق الحياة للاقوى ٠

أما فى الاسلام الامر يختلف فهو لا ينظر للطبيعة الانسانية نظرة تفاؤلية فيقول انها خيرة بطبعها ٠ وانما يقف منها موقفا وسطا ، فهى ليست خيرة وليست شريرة ، وانما هى استعدادات وقدرات قابلة للتشكل والصياغة٠ ومن خلال تفاعلها مع المجتمع يتحدد نعتها بالخير أو بالشر ، فليست هناك طبيعة انسانية خيرة أو شريرة ، وانما هناك ارادة وقدرة وصعاب ، وبقدر ما تحرزه الطبيعة الانسانية من نجاح وتوفيق بقدر ما تكون خيرة ، وبقدر ما تفشل وتخفق بقدر ما تكون شريرة واذا كان القرآن الكريم يقول « ان النفس لأمارة بالسوء » فهو يقول أيضا « ولا أقسم بالنفس اللوامة » ٠ ويقول تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ٠ ويقول تعالى « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » ويقول تعالى « وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة » ويقول تعالى « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » السجدة ١٣ ويقول تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ٠ فالآيات كلها تؤكد حيدة الطبيعة الانسانية وعدم وصفها سلفا بأنها خيرة أو شريرة ، وانما يتحدد ذلك بما تقوم به الطبيعة الانسانية من سلوك ، وما تزاوله من عمل « كل نفس بما كسبت رهينة » ٠

لقد زود الله تعالى الانسان بالقدرات الجسمية والعقلية والوجدانية،

وذلل له الكون وسخر له الكائنات ، وأرسل اليه - مع ذلك - الرسل يبشرون وينذرون ويميزون بين طريق الحق وطريق الباطل ، ثم ترك للانسان أن يحدد طبيعته فيجعلها خيرة عندما يركبها ، ويجعلها شريرة عندما ينزل بها الى الحضيض • ويقول الرسول الكريم : « ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه » يقول ابن الأثير فى شرح هذا الحديث : الفطر الابتداء والاختراع ، ومعنى الحديث أنه يولد على نوع من الجبلة ، والطبع المتهيىء لقبول الدين ، فلو ترك لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها الى غيرها • وانما يعدل عنه لآفة من آفات البشر والتقليد ، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى فى اتباعهم لآبائهم والميل لأديانهم (٧٣) •

ويذكر ابن سينا أن الانسان يولد على الفطرة . ويكتسب صفاته المختلفة من المجتمع بمؤثراته الثقافية المختلفة • يقول ابن سينا « والاخلاق كلها الجميل منها والقبيح هى مكتسبة ، ويمكن للانسان متى لم يكن له خلق حاصل جاز أن ينتقل بارادته عن ذلك الى ضد ذلك الخلق » (٧٤)•

والحديث عن الخير والشر فى الطبيعة الانسانية يسلم الى الحديث عن الجانب الرابع من جوانب الطبيعة الانسانية وهو جانب الحرية والجبرية فى الطبيعة الانسانية •

٤ - الجبر والاختيار فى الطبيعة الانسانية :

وهذا الجانب فى الطبيعة الانسانية قد شغل بال الكثير من المفكرين والفلاسفة ورجال الدين ، فهناك من يذهب الى أن الانسان حر فيما يختار ويريد ، ولا دخل فى هذا لقدرة الله وارادته ، وهناك من يذهب الى أن الانسان مجرد من أية حرية فى الارادة ، ومن قال بهذا « جون كالفن » (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م) فى معاهده الدينية المسيحية • ، واسبينوزا » الذى يرفض مذهب حرية الارادة ، ويؤكد لو ان الفرد عرف الحق والصواب لفعله بصورة آلية ، فالارادة مرادفة للفهم وفهم الصواب يعنى اختياره • ولا توجد فى العقل ارادة

---

(٧٣) ابن الاثير ، النهاية فى غريب الحديث والأثر ، ط ١ ، جـ ٣ ، القاهرة المطبعة الخيرية ، ص ٢٣١ •

(٧٤) عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب ، الآراء التربوية فى كتابات ابن سينا ، (مرجع سابق) ، ص ٨٦ •

حرة مجردة مطلقة ، ولكن توجد مجموعة من الاسباب مترابطة ، ولو أن الواحد كان لديه قدر كاف من الحقائق لاستطاع ان يتنبأ بما سيفعله الشخص ولو بعد عشر سنوات ، والارادة والفهم شيء واحد (٧٥) ٠

ويهم الباحث أن يشير الى الفرق بين الجبرية والحتمية ، فالجبرية أو القدرية تعنى الاستسلام المطلق ونسبة كل شيء الى اللـــه ، دون محاولة لمعرفة الاسباب ، وحياة الانسان هى أشبه بكتاب سجل عليه كل شيء ٠ وكل مايفعله الانسان أن يعيش حياته فى حدود الدور الذى قدر لـــه أن يلعبه ، فالجندى مثلا فى ساحة القتال ، ومع تطاير الرصاص من حوله ٠ اذا كان يؤمن بالجبرية ـ لا يحاول ان يفكر فى سبيل للنجاة أو الخلاص ، وكل ما يقوله هو أنه اذا كان قـد حان اجله فليس هناك شيء يجب أن يفعله (٧٦) ٠ والحتمية تعنى خضوع كل الكائنات بما فى ذلك الانسان لقوانين حتمية لا مجال معها للصدفة أو المفاجأة فالحتمية تختلف عن الجبرية من حيث أن الاولى تدعو لمعرفـــة الاسباب ، والوقوف على القوانين التى تحكم كل الاشياء ٠ أما الاخيرة فهى تعزو الاحداث والوقائع الى اللـــه دون محاولة للوقوف على أسبابها الحقيقية٠

وقضية الجبر والاختيار فى الفكر الاسلامى قضية جـد خطيرة ، امتدت خطورتها الى البحث فى عدالة اللـــه ذاته ٠ وهى تعد من الامور المتشابهة فى القرآن أى الامور المشكلة التى قـد يضطرب فيها الفكر ويتناقض فيها العقل ٠

وكما حوى القرآن الكريم آيات تقرر الجبرية فى الطبيعة الانسانية ، فقد حوى آيات أخرى تؤكد الحرية والاختيار فيها ٠ ومن الآيات التى تقرر الجبرية قوله تعالى « انا كل شيء خلقناه بقدر » ، وقوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » ، وقوله تعالى « ما اصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها ، ان ذلك على اللـــه يسير » ، وقوله تعـــالى « واللـــه خلقكم وما تعلمون » وقوله تعالى « قل اللـــه خلق كل شيء وهـو

---

(٧٥) Sahakian, William S. & Sahopian, M. Lewis : Realms of philosophy. Sshenk Man puylishing Company, Lnc 1965, P. 324.

(٧٦) Ibid P. 273.

الواحد القهـار » ، وقوله تعالى « وما رميت اذ رميت ولكن اللـه رمى » ، وقوله تعالى « يضل من يشاء ويهدى من يشاء » ، وقوله تعالى « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداهـا » ٠

ومن الآيات التى تقرر حرية الانسان واختياره قوله تعالى « لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن اللـه ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وقوله تعالى « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا ، قل هو من عند أنفسكم » ، وقوله تعالى ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ، وقوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، وقوله تعالى « أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير » ٠

وكما ان الآيات قد يبدو فيها الاختلاف ، فكذا الحديث الشريف ٠ فالرسول عليه السلام عندما يقول : « ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، أبواه يهودانه وينصرانه » ـ فهو يؤكد حرية الانسان واختياره ٠ عندما يقول « خلق هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون » ـ فهو يقرر الجبرية ٠

وبسبب هذه القضية ظهر فى صدر الاسلام أربعة مذاهب : القدرية ، والجبرية ، والمعتزلة ، والأشاعرة (٧٧) ٠

والقدرية تذهب الى ان الانسان يقدر أعمال نفسه بعلمه ، ويتوجه اليها بارادته ، ويوجدها بقدرته ، فالله تعالى لا يقدر هذه الأعمال ازلا ، ولا يتدخل فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، وقوله تعالى « أو يوبقهن بما « معبد الجهنى ، وشيعته ٠

أما الجبرية ومؤسسها « جهم بن صفوان » ، وأتباعه ، فهى تنفى الفعل حقيقة عن العبد ، وتضيفه الى الرب تعالى ٠ والجبرية أصنافا ، فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبت للعبد فعلا ، لا قدرة على الفعل أصلا والجبريـة

---

(٧٧) محمد يوسف موسى ، القرآن والفلسفة ، دار المعـارف بمصر ، ١٩٥٨ م ، ص ١١٦ ، ١١٧ ٠

المتوسطة هى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة (٧٨) ٠

والمعتزلة تقف موقفا وسطا بين الفريقين السابقين ، فهى تقول ان الله تعالى علم كل شىء وقدرة أزلا يستوى فى ذلك فعله أو فعل العباد ٠ وأفعال نفسه هى التى يريدها ويوجدها وفق علمه الازلى أما أفعال الانسان فيتركها الله تعالى للانسان ، وان كان يعلم أزلا ما سوف تكون عليه هذه الافعال ٠

وأهل السنة يقولون ان أفعال العباد وجميع الحيوانات مخلوقة لله تعالى ، ولا موجد لها الا الله تعالى سواء أكان الموجد عينا أم عرضا ٠ ويحتج أهل السنة لرأيهم هذا بقوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » اى خلقكم وعملكم ٠ كما يحتجون بأن فعل العبد محدث ، وهذا جائز الوجود فيستوى فيه امكان الوجود والعدم ، فلا يترجح الوجود على العدم الا بمخصص واجب الوجود وهو الله تعالى ، لأن العبد متى كان قادرا على ايجاد الحركة فى نفسه فنقول : هل يقدر الله تعالى على ايجاد السكون فى نفسه فى تلك الحالة أو لا ؟ ان قلت يقدر ، لزم اجتماع الضدين ، وان قلت لا يقدر ، لزم تعجيز الله تعالى ، وكلاهما محال ٠ وفعل العبد يسمى كسبا لا خلقا ، وفعل الله تعالى يسمى خلقا لاكسبا (٧٩) ٠ ويرد المعتزلة على أهل السنة بأن أفعال العباد مخلوقة ، ويؤيدون رأيهم بطريقين : طريق الشرع الذى يقوم على فكرة الثواب والعقاب ، فهم يرون أن العبد يثاب على فعله الحسن ، ويعاقب على فعله القبيح ٠ وطريق العقل حيث يقولون : ان العاقل يستطيع يميز بين حركاته الارادية وحركاته غير الارادية (٨٠) ٠

---

(٧٨) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ١ ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة محمد على صبيح وأولاده ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٩٠ ٠

(٧٩) الشيخ الامام نور الدين الصابونى (تحقيق وتقديم فتح الله خليف) ، كتاب البداية من الكفاية فى الهداية فى أصول الدين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ١١٢ ، ١١٣ ٠

(٨٠) محمد عاطف العراقى ، « مشكلة الحرية فى الفكر الاسلامى » دراسات فلسفية (مهداه لعثمان أمين) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م ، صص ١٩٢ ، ١٩٣ ٠

والغزالى يقول أن الفعل فى الانسان يطلق على ثلاثة وجوه : الفعل الطبيعى ومثاله غرق الانسان فى الماء ، والفعل الارادى ومثاله التنفس بالرئة والحنجرة. والثالث الفعل الاختيارى ومثاله الكتابة بالأصابع . والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى والفعل الارادى ، أما الفعل الاختيارى فالامر مشكل لأن هذا الفعل ذو وجهين فاذا حكم العقل من غير تردد بأن الفعل موافق ، وأما أن يتردد ويتروى وفى كلا الأمرين فان الارادة مسخرة لحكم العقل ، والقدرة مسخرة للارادة ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر فى الانسان بالضرورة من حيث لايدرى، انما هو كما يقول الغزالى محل ومجرى لهذه الامور لا خالق لها بحرية . فاذن معنى كونه مجبورا ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه . ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا . بالحتمية - التى سبقت الاشارة اليها ويقول « ابن رشد » ان فكرة القضاء وحدوث هذا الحكم جبر ايضا ، فاذن هو مجبور على الاختيار » (٨١) .

« وابن رشد » يقول بالحرية فى فعل الانسان ، ويفسر القضاء والقدر والقدر ترجع عندى الى فكرة السببية ، فاذا كانت ارادتنا تجرى على نظام محدد ، واذا كان ما فى العالم الخارجى يجرى على هذا النظام ، فان هذا يقوم على منطق الاسباب والمسببا ت، والعلاقا تالضرورية بين كل منهما . ففكرة القضاء والقدر لا تخرج عن فكرة السببية (٨٢) .

ويقول الامام محمد عبده : لا يوجد مسلم يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل ان كل انسان يعتقد بأن له جزءا اختياريا فى أعماله ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب . والناس سوف يحاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيار ى، كما أنهم مطالبون بامتثال جميع أوامر الله ، الداعية لكل خير الهادية لكل فلاح .

---

(٨١) جميل صليبا . تاريخ الفلسفة العربية (مرجع سابق) ، ص٣٥٥، ٣٥٦ .

(٨٢) محمد عاطف العراقى ، النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م ، ص ٢٠٣ .

وعن القضاء والقدر يقول الامام محمد عبده : أن الاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل ، وترشد اليه الفطرة ، فالانسان لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا الخالق ، والانسان متأثر بمظاهر الكون فى فكره وارادته ، فهو يجهل الاسباب احيانا ولا يلم بها ، فلكل حادث سبب مقارن لـه فى الزمان ٠

ويقول محمد عبده : ان الاعتقاد بالقضاء والقدر لو تجرد عن شفاعة الجهر لتبعته صفة الاقدام والشجاعة والبسالة والجراءة (٨٣) ٠

بعد هذا يمكن القول بأن الاسلام قد أكد حرية الانسان واختياره لفعله وهو لذلك محاسب على فعله ، ومسئول عن سلوكه واذا كان الاسلام قد اقر الحرية فى الطبيعة الانسانية فقد أقرها فى مجال العقيدة ، والفكر ، والاقتصاد، والسياسة ، والقضاء والقدر ليس رفضا لهذه الحرية أو انكارا لها ، بل يمكن القول بأنه مكمل للحرية ، فاذا كان الهدف من الحرية هو توفير الامن والاستقرار للطبيعة الانسانية بعيدا عن القيود والاغلال ، فان القضاء والقدر يهدف أيضا الى نفس هذه الغاية ، فالقضاء والقدر يثلج الصدور ، ويريح الفكر عندما يعيـا عن ادراك الاسباب ، ويعجز عن استكناه الحقيقة ٠

والحديث عن الجهر والاختيار فى الطبيعة الانسانية يؤدى الى الحديث عن مجال الممارسة ومدى القدرة على السلوك والفعل ، وهذا ماسوف نتناولة فى الجانب الخامس وهو :

٥ ـ الفردية والاجتماعية فى الطبيعة الانسانية :

غالت بعض المذاهب الفلسفية فأعلت من شأن الفرد على حساب المجتمع ، وجعلت الفرد محور اهتمامها ، وأنكرت على المجتمع أن يكون له سلطة التوجيه والارشاد ، ورأت أن مايصدر عن الفرد من سلوك خاطىء انما يرجع الى قيود المجتمع ونظمه ٠ فلو ترك الفرد ونفسه متحررا من ضوابط المجتمع وأساليبه

---

(٨٣) محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ، ج ٢ ، ص ص ٢٦١ ، ٢٦٣ ٠

لعاش فى سعادة وطمأنينة • وهذا ماتقول به - مثلا - الطبيعية • كذا أيضا فان الوجودية قد أعلت من شأن الذات • وجعلت من الفرد محور اهتمامها وهدف دعوتها • ونادت بأن يتمتع الفرد بالحرية الكاملة • وبقدر مايمارس حريته بقدر مايحقق ذاته ، فحياته مشروع يتحقق بممارسة السلوك الحر نحو الكون ونحو الآخرين • وتعتقد الوجودية أن الفرد هو الذى يحدد لنفسه سلوكه ، طالما كان على وعى وادراك بما يقوم به • واذا كان الفرد يلتزم بمبادىء معينة ، فان التزامه بها ناجم عن وعيه بالحرية التى يمارسها •

ومن ناحية أخرى غالت بعض المذاهب الفلسفية فأعلت من شأن المجتمع على حساب الفرد • ونظرت للفرد على أنه جزء من آلة كبرى • فالفرد ينبغى أن يخضع لقيود المجتمع ونظمه وثقافته وليس من حقه أن يثور على المجتمع ، أو يفكر فى الخروج عليه • ووجود الفرد لايتحقق الا من خلال المجتمع • والفرد هو طاقة مادية تضاف الى الطاقات الاخرى من أجل حياة المجتمع وبقائه • بهذا قالت الماركسية المادية • وبهذا فان أيضا « هيجل » الذى اطلق على المجتمع الروح المطلق •

وواضح مافى كلتا النظرتين من تطرف ومجافاة للحقيقة • فلا يمكن القول بالفرد على حساب المجتمع اذ لايمكن للفرد أن يحيا بمعزل عن المجتمع • كذلك لايمكن القول بالمجتمع على حساب الفرد لأن هذا يعنى انكارا لحرية الفرد ، ورفضا لكيانه المستقل •

وفى الاسلام - وهو الدين الوسط - يختلف الامر ، فالاسلام يقر ويؤكد الكيان المستقل للفرد كما يقر ويؤكد الكيان المتكامل للمجتمع • ويقرر أن المجتمع يستمد وجوده من كيان الفرد • والفرد يحقق ذاته من خلال التعامل مع المجتمع •

ويتضح تأكيد الاسلام للكيان المستقل للفرد فى الحقوق التى قررها له • وأول هذه الحقوق حق الحياة نفسها • فلم يبح الاسلام قتل نفس أو اراقة دم فرد الا بحق ، هذا الحق اما أن يكون من أجل القصاص أو من أجل

الارتداد عن الدين ، أو من أجل السعى فى الأرض بالافساد • يقول تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن والسن بالسن ، والجروح قصاص » المائدة : ٤٥ • ويقول تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ••» المائدة : ٣٣ •

ويغير هذا لايحق قتل نفس ولو كان لضرورة اقتصادية ، يقول تعالى « ولاتقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » الاسراء : ٣١ • ويقول تعالى « ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » الاسراء : ٣٣ •

ولقد وفر الاسلام حق الحياة للانسان منذ أن يكون جنينا فى بطن أمه ، لذا أباح الاسلام للحامل أن تفطر خوفا على الجنين اذا ماكان عرضه للهلاك ، وأنعم الله تعالى على الانسان وهو رضيع فأجرى اللبن لـه فى ثـدى أمـه « وهديناه النجدين » وسخر له مافى الارض من نعم وخيرات ودعاه الى السعى فيها » فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه « من أجل هذه الحياة ومن الحقوق التى أقرها الاسلام للفرد حق الحرية يقول تعالى « ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » آل عمران : ٧٩ • ولقد اعطاه هذا الحق يوم أن دعاه لعبادته والخضوع له ، وعد الله تعالى الخضوع لغيره شركا وذلة • ولم تكن الحرية لتشمل مجـالا واحدا من مجالات السلوك الانسانى ، وانما تشمل كل المجالات • اقر الاسلام للفرد الحرية الدينية قال تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » البقرة : ٢٥٦ • وقال تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » يونس : ٩٩ • وقال تعالى « فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البـلاغ المبين » المائدة : ٩٢ • ويقول تعالى « قل يأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ، لكم دينكم ولى دين » • ويقول تعالى « ماصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ •

فهذه الآيات وغيرها كثير تؤكد حرية العقيدة ، لكنها لاتعنى ان الفرد حر فى أن يعتنق الاسلام ثم يرجع عنه لان هذا يعنى ردة ٠

وقد اتضحت حرية العقيدة من خلال الممارسة الفعلية للرسول الكريم وصحبه ، فلقد بنى الرسول عليه السلام بمارية القبطية ، وهاجر المسلمون الأوائل الى أرض الحبشة المسيحية ٠ وحتى فى مجال النقاش الدينى دعا الله تعالى نبيه الى المجادلة الحسنة « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى احسن» وقد أمر عمر بن الخطاب بجلد ابن عمرو بن العاص عندما علم باعتدائه على قبطى من مصر وقال للقبطى اضرب ابن الاكرمين حتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ٠ فحرية العقيدة مكفولة طالما كانت بعيدة عن الضرار والأذى وافساد المصلحة العامة ٠ كذا فر الاسلام حرية الرأى فلم يصادر رايا مخالفا ، ولم يتهم صاحبه بأنه مرق من الدين ٠ وقد أعطانا الله درسا فى حرية الرأى واحترام فكر الآخرين من خلال موقف الخليل ابراهيم منه قال تعالى « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » سورة البقرة : ٢٦٠ ، فابراهيم عليه السلام عندما خامرته خاطرة ، وساورته فكرة لم يتورع عن أن يسأل الله تعالى حتى يطمئن قلبه ٠ ومع هذا لم يطرده الله من رحمته ، ولم يقل عنه أنه نبى خليل الله (٨٤) ٠

ويقول الله تعالى « وكان الانسان أكثر شىء جدلا » ٠ فالانسان من طبيعته الشك والتفكير والجدل ٠ ولقد كان المنهج الذى انتهجه ابو الحنيفية ابراهيم الخليل « منهجا يقوم على الشك الذى يفضى الى اليقين قال تعالى « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما افل قال لاأحب الآفلين ٠ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ٠ فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين ٠ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما

---

(٨٤) بنت الشاطىء ، مقال فى الانسان (مرجع سابق) ، ص ٩١ ، ٩٢ ٠

أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » الأنعام : ٧٦ - ٧٩ •

وقد حوى القرآن الكريم سورة كاملة تحمل اسم المجادلة « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها » • وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اذا دخلت عليه هذه المرأة أكرمها وأحسن استقبالها • وقال : قد سمع الله بها ، وقصة عمر بن الخطاب مع المرأة التى اعترضت عليه عندما أراد أن يحد من الغالاه فى المهور معروفة ، فلقد قرر عمر أن يأخذ مازاد على خمسة وعشرين درهما ، ويرده لبيت المال ، فخرجت امرأة ، وقالت بأعلى صوتها على مرأى ومسمع من الجالسين • ليس لك هذا ياعمر ، فلم يزجرها بل سألها ، ولم ؟ قالت لأن الله تعالى يقول « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا » • فرجع عمر عن رأيه ، وقال : أخطأ عمر وأصابت امرأة •

وحرية الرأى فى الاسلام مكفولة مالم تكن عدامة فاحشة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » • ويقول تعالى « •• ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » الكهف : ٥٦ ، ويقول تعالى « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » الحج : ٨ • ويقول تعالى « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » غافر : ٥ •

ولقد اعترض عمر بن الخطاب رضى الله عنه على شروط صلح الحديبية وقال : لم نعطى الدنية فى ديننا ؟ ولم يعنفه الرسول عليه السلام أو يزجره • كما استمع الرسول لرأيه ورأى أبى بكر فيما يتخذه من أسرى بدر • فأشار عمر بالقتل ، وأشار أبو بكر بالافتداء •

وحرية الفكر فى الاسلام هى التى كفلت وجود هذا التراث العلمى الزاخر ،

وهى التى أدت لظهور الفرق الاسلامية . وقد أقر الاسلام فعل معاذ حين بعثه واليا ليعلم الناس أمور دينهم فقال له بم تحكم ؟ قال بكتاب الله ، قال فان لم تجد ؟ قال بسنة رسوله . قال فان لم تجد ؟ قال اجتهد برأيى .

ويعد الاسلام الاجتهاد الفكرى مصدرا من مصادر الشريعة . يقول الرسول فى حديث معناه المؤمن ان اجتهد فأخطأ فله أجر ، فان اصاب فله أجران . الأمر الذى يؤكد حرص الاسلام على توفير الحرية الفكرية وتقديره لها ، فلا مصادرة فى الرأى ، ولا ارهاب فى الفكر . ان طبيعة الاسلام نفسها تقوم على التفكير ، لان الانسان بطبيعته مفكر فالاسلام حين يقرر الحرية فهو يقرر حقا ثابتا بمقتضى الفطرة .

كذا اقر الاسلام حرية الكسب وطلب الرزق ، وأطلق الطاقات المنتجة من عقالها . ودعا الانسان الى بذل الجهد والعمل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وقرر الاسلام أيضا الحرية السياسية أو مايسمى الان بالديمقراطية ، يقول تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ويقول أيضا « وشاورهم فى الأمر » . ويقول أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، أطيعونى مااطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

ومن الحقوق التى قررها الاسلام للفرد مساواته بالآخرين مع اغفال عوامل الجنس واللون والحسب وغيرها ويقول تعالى « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » ويقول الرسول الكريم « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » . ويقول « الناس سواسية كأسنان المشط » . وكان من أصحاب الرسول الكريم بلال وصهيب

وسلمان وغيرهم من الأعاجم فالاسلام يقر المساواة أمام القانون وأمام الله ، ويرفض أى حاجز يحول دون تحقيق هذه المساواة • والاسلام حين يقرر المساواة فهو يقرر تكافؤ الفرص بين الأفراد كل حسب طاقته وجهده • أى أن الاسلام لايغفل الفروق الفردية ولا يهملها •

ومع أن الاسلام قرر هذه الحقوق الفردية الا أنه يقرر أن الانسان يعيش وحده بمعزل عن الآخرين ، ومن ثم فان للمجتمع حقوقا • وهى حقوق لاتتعارض مع حقوق الفرد ، ولكنها تتكامل معها وتتضافر من أجل الهدف الأسمى وهـــو عبادة الله وطاعته •

واجتماعية الانسان هذه ضرورة فطرية فالناس كما يقول ابن سينا متفاضلون فى عقولهم وأملاكهم ومنازلهم ورتبهم ، مما يثير الحقد والبغضاء والتنافس والتظالم ، ولو أن الناس كانوا جميعا متساوين لفنوا عن آخرهم ، فلو تساووا فى الغنى لـما مهن واحد لأحد ، ولو تساووا فى الفقر لماتوا وهلكوا بؤسا (٨٥) •

فالانسان اجتماعى بطبعه ، وقد تعرض لهذا الجانب الكثير من المفكرين والفلاسفة ، منهم الغزالى ففى حديثه عن حقيقة الدنيا وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم ومواردهم – يتنـاول أصول المجتمع الانسانى وتطوره فيقول « اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، للانسان فيها حظ ، وله فى اصلاحها شغل • فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها ، وليس كذلك • أما الاعيان الموجودة التى الدنيا منها فهى الأرض وماعليها ، قال تعالى « انا جعلنا ماعلى الارض زينة لهـــا لنبلوهم ايهم احسن عملا » فالأرض فراش للآدميين ، ومهـاد ، ومسكن ، ومستقر • وماعليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح • ويجمع ماعلى الأرض ثلاثة أقسام أقسام : المعادن ، والنبات ، والحيوان • أما النبات يتطلبه

---

(٨٥) ابن سينا ، « كتاب السياسة » ، تشرلويس معروف ، مجلة الشرق، ١٩٠٦ م ، ص ٩٦٩ •

الآدمى للاقتيات والتداوى • وأما المعادن فيطلبها للآلات والأوانى كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقصد • وأما الحيوان فينقسم الى الانسان والبهائم ، أما البهائم منها لحومها للمأكل ، وظهورها للمراكب والزينة ، وأما الانسان فقد يطلب الآدمى ان يملك ابدان النـاس ليستخدمهم ويسخرهم كالغلمان ، أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام ، وهو الذى يعبر عنه بالجاه اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين • فهذه هى الاعيان التى يعبر عنها بالدنيا ، وقد جمعها الله تعالى فى قوله « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » وهذا من الانس • « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة» وهذا من الجواهر والمعادن • « والخيل المسومة والأنعام » وهى البهائم والحيوانات « والحرث » وهى النبات والزرع •

ويمضى الغزالى فى شرح الأعمال الدنيوية والحرف والصناعات ، ويأخذ فى تقسيم الناس الى فئات حسب اعمالهم فمنهم النجارون ، والحـدادون ، والجزارون ، وغيرهم • كما أن هناك الجنود الذين يقومون بالحراسة ، والولاة الذين يتولون أمور الحكم ، الى غير ذلك مما يقتضيه بناء المجتمع (٨٦) •

يقول الامام محمد عبده « وكفاك من الدليل على أن الانسان لايعيش الا فى جملة ما وهبه الله من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى فى الألفاظ ، وتأليف العبارات ، الا لاشتداد الحاجة الى التفاهم ، وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لاغنى لأحدهم عـن الآخر •

وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدى العاملة فتشتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة من الأهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع بأسرة (٨٧) •

---

(٨٦) الغزالى ، احياء علوم الدين (كتاب ذم الدنيا) •

(٨٧) الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ط ١٥ ، القاهرة ، دار المنار ، ١٣٧٢ هـ ، ص ٩٧ •

ولقد وقف الفيلسوف العربى ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) نفسه على دراسة المجتمع ، حتى عد رائد علم الاجتماع ، فقد درس المجتمع بهدف الوقوف على قوانينه التى تحكمه فى مختلف مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية فكان بذلك فيلسوفا للتاريخ ، رئدا فى بيان أثر الاقتصاد فى حياة الأمم والشعوب ومؤسسا لعلم الاجتماع ٠

ان أهم قوانين العالم الاجتماعى فى رأى ابن خلدون هى قوانين الحركة والتطور التى تتبع الوجه السياسى ، والتى تشبه قوانين الكائنات الحية فى العالم الطبيعى ٠ وهى كائنات لاتثبت عند حال واحدة ، بل هى تتطور وتنمو وتتبدل أخيرا ٠ فابن خلدون ينتقل من فكرة القانون الى فكرة الحياة وتطورها فى نطاق بيئى ٠ فالنظرية ابن خلدون فى تفسير حياة المجتمع تأخذ شكلا حيويا بيولوجيا يقارن فيه بين الكائن الحى فى مختلف مراحله وبين المجتمع ٠ وهو بهذا يسبق « أوجست كونت » من ناحية فكرة تطور الحياة الاجتماعية ، كما يسبق « هربرت سبنسر » فى فكرة بناء التطور الاجتماعى على الناحية الحيوية البيولوجية ٠

وابن خلدون يتحدث عن حركة المجتمع على أنها حركة جذب لادفع ، بمعنى أنه لايبحث عن الأسباب الدافعة ، وانما يبحث عن الاهداف والغايات الجاذبة : فكل حالة تعرض للمجتمع البشرى لاتقف عند حالة واحدة ، بل هى وسيلة لحالة أخرى قد تكون أحسن منها أو أضعف ٠ فابن خلدون يضع اهدافا وغايات لتطور المجتمع البشرى على نمط حركات الاجسام الحية التى تنتقل من مرحلة الى اخرى تتبعها وتجذب اليها الى أن تفنى ٠ فالانسان يولد طفلا ، ويشتاق ويعمل ليكون صبيا ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ثم هرما ، ثم يفنى ٠ كذا حال المجتمع له اربع حالات هى بمثابة الاعمار عند الكائن الحى (٨٨) ٠ يتحدون للعيش مجتمعين ٠ وابن خلدون يذكر ان الاسباب الطبيعية المتصلة بالظروف

---

(٨٨) عبد العزيز عزت « تطور المجتمع البشرى عند ابن خلدون » اعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٦٢ م ، ص ص ٤١ - ٤٣ ٠

الجغرافية وأن العوامل الاقتصادية هى التى تحدد انماط الشعوب • وهو يحاول أن يستخلص خطوط التاريخ الكبرى للأمة من طراز معاشها ومن أحوال بيئتها• ويرى البعض انه كان مبشرا بمبادىء المادية التاريخية (٨٩) •

فالانسان اجتماعى بطبعه • والاسلام حريص غاية الحرص على بناء المجتمع الاسلامى بناء قويا محكما ووضع له من القواعد الرصينة مايكفل لـه الصمود والشموخ • فالمجتمع الاسلامى يقوم على : الاخاء يقول تعالى « انما المؤمنون اخوة » ، كما يقوم على العقيدة الواحدة يقول تعالى « وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، ويقوم عـلى المساواة • يقول الرسول الكريم « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، ويقوم على العزة يقول تعالى « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين»، ويقوم على التكافل والتكامل فقد فرض الاسلام الزكاة وجعلها حقا « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » • واعتبر الاسلام المال وسيلة لاغاية ، وجعل اللـه الانسان مستخلفا فيه يقول تعالى « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » • واعتبر الاسلام الفقر مرضا اجتماعيا وليس قدرا مقدورا لاحيلة فى دفعه بسعى أو كسب (٩٠) • ولم يكن التكافل ليقف عند حـد المـال بل التكافل يشمل كل مرافق الحياة ، فدعا الاسلام الى معاونة القوى للضعيف ، والى نصرة المظلوم يقول الرسول الكريم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » •

كذا ايضا فان المجتمع يقوم على الدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقول تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » وشرع الاسلام الحدود حماية لهذا المجتمع من الانهيار والتصدع • وجعل الديمقراطية أسلوب فى الحياة •

---

(٨٩) غاستون بوتول (ترجمة عادل زعيتر) ابن خلدون « فلسفته الاجتماعية » ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، ص ٤٧ ، ٤٨ •

(٩٠) مصطفى السباعى ، اشتراكية الاسلام ، الاتحاد القومى ، دار مطابع الشعب ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م ، ص ١٣٠ •

ولقد صور الرسول الكريم هذا المجتمع فى تماسكه وتكافلة وقوة بنائه بقوله « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ٠

فالانسان له كيانه المستقل المميز ، وله طابعه الاجتماعى الذى يؤكد ذاتيته ، ويجسد وجوده الخاص ٠ فحياة الفرد هى من حياة المجتمع ، وحياة المجتمع هى تجسيد وبلورة لحياة الفرد ٠

٦ ـ النوع فى الطبيعة الانسانية :

والاسلام فى تناوله للنوع فى الطبيعة الانسانية لايفرق بين الذكر والانثى، فيعترف بالقيمة الانسانية للمرأة ، ويؤكد كل حقوقها التى تقتضيها الطبيعة الانسانية ٠ والاسلام فى تقديره لقيمة المرأة انما يؤكد على دورها فى البناء والمساهمة فى النشاط الانسانى ٠ فالمرأة هى نصف المجتمع ، وهى بعض الرجل ، وقد خلقت منه ليكمل بها ويأنس لها فى طريق الحياة ٠ يقول تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ،وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء : ١ ٠ ويقول تعالى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » ويقول تعالى « والله جعل لكم من أنفسكم ازواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » ٠

والله تعالى يوضح الغاية من خلق المرأة ، فهى تهب الحياة للحاضر والمستقبل ، وهى سر الاستمرار والديمومة ٠ وبذا ينفى القرآن ماترسب فى الاذهان من أن المرأة سبب الشر وسر افساد البشرية ، وأنها التى أغوت آدم ٠ والقرآن لايكتفى بالنفى الضمنى ، بل يردف بقوله تعالى « وعصا آدم ربه فغوى » فيفرد آدم بالمعصية ، ويخصه وحده بالذكر ويحمل وزره ، وأنه المسئول وحده عن هذا السلوك ٠

وهذه القيمة الانسانية لاتتعارض ابدا مع الفارق الطبيعى بين الرجل والمرأة ، أو الذكر والانثى لأن هذا الفارق له دلالة ، فهى أولا آية من آيات الصنع الالهى ، ومظهر من مظاهر قدرة الله فى الازدواج والتكامل ٠ والقرآن الكريم يشير لذلك فى أكثر من موضع قال تعالى « والليل اذا يغشى ، والنهار

اذا تجلى ، وماخلق الذكر والانثى ، ان سعيكم لشتى » ويقول تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » • فالازدواج ضرورى ولازم لنظام الكون، فالملاك يقابله الشيطان ، والذكر تقابله الانثى ، حتى فى الجماد ، ففى عالم الكهرباء تقابل الشحنة الموجبة الشحنة السلبة ، وماهذا الانسان والتجاذب بين عناصر الكون وتماسك اجزائه الا بسبب الازدواج والتكامل • ويوضح هذه الحقيقة قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » •

ويقول الغزالى فى شرح معنى الاية « الموجودات كلها متقابلة الا الله تعالى فانه فرد لامقابل له » •

ولهذا الفرق دلالة وظيفية أخرى تفرضها ظروف الحياة وحتمية الواقع ، فلا يمكن للمجتمع أن يستقيم أمره ، ويصلح شأنه الا اذا كان هناك تنوع فى العمل أو توزيع فى الوظيفة • ولكل وظيفة طبيعتها المميزة ، ولكل عمل استعداده الخاص فما يصلح له الرجل لاتصلح له المرأة ، وكذا العكس • لقد أوتى الرجل بسطة فى الجسم ، وقوة فى البنيان لأن وظيفته تقتضى ذلك• وكانت المرأة دونه لان وظيفتها تغاير وظيفته • فالمرأة تتعرض لأعباء الحمل والرضاعة وغيرها • وهذه الأعباء تجعل من الواجب أن تكون هناك رعاية خاصة بها ، وعناية متوفرة لها • وقد كان أن خفف الله عنها فى العبادات هذا من جانب الله تعالى • أما من جانب الرجل ، فقد أوجب الله تعالى عليه كفالتها من كل وجه • بالانفاق والرعاية والحماية ولان وظيفة الامومة بجعلها غير قادرة ـ أحيانا ـ على العمل له أو التفرغ له كما يجب •

من هنا يتضح ان طبيعة العمل وحتمية الحياة توجب تنويع النشاط ، وتحديد الوظيفة ، فما خلق له الرجل لم تخلق له المرأة • وما يؤديه الرجل يتكامل مع ما تؤديه المرأة ، وان كان مغايرا له •

واذا كان الاسلام قد جعل القوامة للرجل فما ذاك الا مراعاة للظروف وتقدير للاعباء التى ينهض بها كل منهما فلا يمكن للمرأة أن تتحمل مسئولية الأسرة أو أن تدير شئون المنزل بمنأى عن الرجل • كذا لا يمكن أن تكون لها

القيادة خاصة وأن عليها من التبعات والواجبات ما يثقل كاهلها • فالواجب الانسانى يحتم أن ينفرد الرجل بالقيادة وأن يتفرغ لهـا وأن يساهم بذلك فى التخفيف عن كاهل المرأة •

فالقوامة ناشئة عمـا توافر للرجال من صفات القوة المتنوعة التى تتطلبها الحياة ، وأيضا لما تتصف بـه المرأة من رقـة ولين يجعلها غير قادرة عـلى قيادة الحياة الاسرية •

والرجل والمرأة مطالبان بالايمان وهمـا أمام القانون سواء • وفى الجزاء متساويان يقول تعالى « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منـكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض » • ويقول تعالى « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثىوهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » •

وهمـا يشتركان فى المسئولية يقول تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » •

كما يجمع بينهما القرآن فى فضائل الاعمال يقول تعالى « ان المسلمين والمسلمات ،والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات • والذاكرين اللـه كثيرا والذاكرات ، أعـد اللـه لهم مغفرة وأجراعظيما » •

وقـد كفل الاسلام لهـا حقوقها بما فى ذلك حق العقيدة فيقول تعـالى « يأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، واللـه أعـلم بايمانهن ، فـان علمتموهن مؤمنات فـلا ترجعوهن الى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » الممتحنة : ١٠ (٩١) •

---

(٩١) محروس سيد مرسى ، « تربية المرأة المصرية بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى فى القرن التاسع عشر » ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة أسيوط ، كلية التربية ، ١٩٧٦ م ، ص ص ١١ ـ ١٧ •